Jamal Hatmal

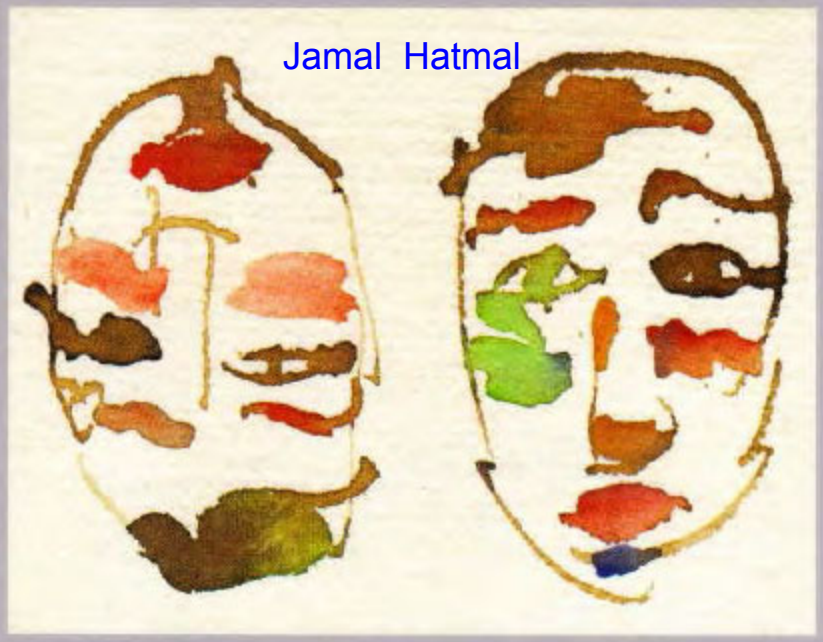

عبد الرحمن مُنيف

أسماء مُستعارة

مجموعة قصص

عبد الرحمن منيف

أسماء مستعارة

* أسماء مستعارة (قصص قصيرة)
* تأليف: عبد الرحمٰن منيف
* الطبعة الأولى، 2006
* جميع الحقوق محفوظة
ISBN: 9953-68-138-4

الناشران

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

المركز الرئيسي:
بيروت، الصنائع، بناية عيد بن سالم
ص.ب: 5460/ 11، العنوان البرقي: موكيالي
تلفاكس: 751438/ 752308
E-mail: mkpublishing@terra.net.lb

التوزيع في الأردن:
دار الفارس للنشر والتوزيع:
عمّان، ص.ب: 9157
هاتف: 5605432، فاكس: 5685501
E-mail: mkayyali@nets.com.jo

المركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع

المملكة المغربية ـ الدار البيضاء:
(الأحباس) ص.ب: 4006 (سيدنا)
هاتف: 2303339
فاكس: 2305726
E-mail: markaz@wanadoo.net.ma

لبنان ـ بيروت:
الحمراء ـ ص.ب: 5158/ 113
هاتف: 352826(01)
فاكس: 343701(01)
E-mail: cca_casa_bey@yahoo.com

عبد الرحمن منيف

أسماء مستعارة

(قصص قصيرة)

المؤسسة العربية
للدراسات والنشر

المركز الثقافي العربي
للنشر والتوزيع

7 €

أسماء مستعارة

cd uma 200

Atalre secondi

إلى ماجدة وحمزة وسعاد
فقد تعرّفوا على زوربا

بعد سفر شاق وصلنا إلى هوسكوفو.

كانت المدينة البلغارية الصغيرة ترتاح في أحضان الأودية، تحيط بها تلال خضراء داكنة لا تجرحها سوى بعض الأبنية الكبيرة التي تبدو من بعيد.

كانت الشمس تلقي آخر أشعتها على هوسكوفو، في هذا اليوم الخريفي الحزين، فتحوّل المدينة إلى مجموعة من الرغبات تضج في العروق، غامضة أول الأمر، ثم تبدأ تتضح من خلال الألوان المتدرجة المتلاحقة، لتصبح في النهاية جميلة أخاذة مليئة بالروعة، حتى لتبدو كل الأشياء منسجمة متعانقة موجودة بقوة، وكان كل شيء يضيف إلى هذه اللوحة وعداً جديداً غنياً، حتى الجامع الوحيد، التركي الطراز، كان ضرورياً ومنسجماً.

بعد أن استرحنا قليلاً في الفندق ولولت في عروقنا تلك الرغبة التي لا تهدأ ولا تشبع، رغبة الاكتشاف والضياع في المدن الجديدة.

Jamal Hatmal

ما إن تجاوزنا ساحة الفندق، باتجاه وسط المدينة، حتى دهمتنا جموع الناس كأنها الجداول الصغيرة.

كانت الجموع تسير باتجاه واحد. سرنا معها وقد انفعلنا بالوجوه والحركة العَجِلَة، وبعد دقائق وجدنا أنفسنا في شارع عريض، وسط كتلة ضخمة متشابكة من البشر، يقسمها من الوسط خط وهمي، مثل خط الاستواء. وكل قسم يسير باتجاه يعاكس الاتجاه الآخر. كانوا رجالاً ونساءً، كباراً وصغاراً. خطواتهم بطيئة والجو يمتلأ بذلك الدوي المخنوق الذي يتولد في الأماكن الكبيرة. عندما يتكلم كل الناس ويضحكون ويسيرون في وقت واحد، فإنك تسمع الأصوات ولكن لا تميز فيها انفرادها أو استقلالها، ولا تستطيع أن تنفصل عنها لتراقبها، بل سرعان ما تصبح جزءاً منها.

كان مساء السبت. أغلب المحلات مغلقة، ما عدا المقاهي والمطاعم وأضواء صغيرة تنير واجهات المخازن التجارية. الناس ينظرون دون اهتمام، أما أولئك الذين قذفهم التيار إلى الضفاف، فقد تباطأت خطواتهم وتوقف بعضهم. الجموع تسير دون توقف، وما يكاد الشارع يصل إلى الميدان، حتى تتخلخل هذه الجموع وتتفكك. يتابع بعض الناس سيرهم نحو الميدان، وينعطف الباقون إلى الضفة الثانية من الشارع يسيرون في الاتجاه المعاكس. وما هي إلا لحظات حتى تماسكت الكتلة البشرية من جديد وعادت إلى دويها المخنوق.

قطعنا الشارع. كنا ننظر بعيون متلهفة إلى الوجوه

ABU ABDO ALBAGL

والأماكن، نريد أن نحفر في الذاكرة تلك المعالم إلى الأبد، ثم انتقلنا إلى الميدان، نبض الشوارع الأخرى. وفي وقت ما شعرنا بالجوع والتعب، فبدأنا نبحث عن مكان نقضي فيه ليلة السبت.

عدنا إلى المطاعم التي مررنا به من قبل. كانت الموسيقى تمتزج بالدخان والرقص فتشكل طبقة شفافة فوق الراقصين، وما كدنا نطلّ برؤوسنا وسط الزحام حتى منّينا أنفسنا بقضاء ليلة رائعة، ما علينا إلا أن نختار مكاناً ونبدأ الاندماج بالرقص والخمر والموسيقى. ولكن هذا الأمل لا يلبث أن ينهار، عندما نرى الأقداح نصف مملوءة على الطاولات، ونرى وجوهاً، على باب المطعم وفي أطرافه، تمتلئ ضراعة، وكأنها تقول أريد مكاناً، أي مكان، وعندما تهدأ الموسيقى ويعود الراقصون إلى أماكنهم يصبح مستحيلاً حتى على الجرسونات أن يمروا..

تكرر المشهد في أكثر من مطعم، ودون مناقشة قررنا العودة إلى الفندق.

كانت الموسيقى في مطعم الفندق صاخبة ضاجّة، والأصوات تملأ المكان، وكان الذين يقفون أكثر من الجالسين. بمشقة، وبعد انتظار، وجدنا طاولة في شرفة الطابق الثاني. كانت ممراً وليست شرفة برجوازية كما يتصور المرء لأول وهلة، لكن الازدحام حوّلها إلى شرفة، لا يبادلها الإنسان بأي مكان، خاصة إذا كان من يجلس هناك لا يحب الرقص. وإذا استبدل هواية الرقص بهواية مراقبة الراقصين.

جلسنا في الشرفة وأجسادنا تتدلى بين فترة وأخرى لكي ترى أكبر مساحة من القاعة.

بعد انتظار أطلّ علينا: كان قصير القامة، سميناً، حازم النظرات، له صلعة غريبة يحيط بها الشعر كأنه الهلال، والمساحة فوق الجبين امتداد طبيعي للوجه. وقف فوق رؤوسنا وبيده دفتره الصغير، وعيناه تحومان بعيداً مثل صقر. وبعد أن تملّى من المنظر كله، جاء صوته من فوق:

- نعم؟

ومد صديقي يده على طولها، وأوقف يده الأخرى متصالبة عليها بشكل يفهمه أنه يريد قائمة الطعام، وسأله بالألمانية:

- أتتحدث الألمانية؟

نظر إلينا نظرة جديدة كأنه يرانا لأول مرة، وأجاب بحيرة:

- بعض الكلمات.

غاب قليلاً ثم عاد يحمل قائمة الطعام. مد جسده القصير واتكأ على الطاولة. حاول أن يترجم بعض الأسماء إلى الألمانية، ولكن ترجمته كانت رديئة إلى درجة أحس هو بذلك.. فتوقف، وبدأ يستعمل يديه وعينيه. ردد بعض الكلمات، ولكن دون جدوى. ولمعت عيناه بنظرة أسف. اعتدل في وقفته، نظر حواليه نظرة دائرية كأنه يستنجد ثم قلب شفتيه وهزّ رأسه. وفهمنا أن ليس لديه حل.

حتى تلك اللحظة كنت صامتاً، لأن الكلمات البلغارية التي أعرفها تختلط بالروسية، ولم أكن متأكداً أنها تشكل جسراً بيننا للتفاهم، ولكن في مواجهة حالة مثل هذه، كان يجب أن تستعمل كل اللغات وكل الإشارات.

قلت بالروسية:

- نريد نبيذاً جيداً.

تطلع إليّ بنظرة تختلط فيها مظاهر الغضب بالفضول، وكأنه يلومني على صمتي عندما كان يتكلم الألمانية، وشعر أني جرحته، فقال:

- أنت تعرف البلغارية!

قلت: لا، أعرف فقط بعض الكلمات.

- ولكن تعرف أكثر مني، وبدأ شيء جديد في وجهه، لم أستطع فهمه، وخشيت إن ظل الأمر غامضاً أن يسيء فهمنا. فقلت له:

- أعرف الروسية. وهناك كلمات مشتركة مع البلغارية.

- بالتأكيد أنت تعرف البلغارية، وضرب كتفي بصداقة، وقال لي بالروسية: هيا نتكلم.

سألته: ألست بلغارياً؟

- يوناني، قالها بكبرياء، كأنه يحاول أن ينفي عن نفسه تهمة، ونظر إلى وجوهنا ليرى أثر هذه الكلمة.

قلت له بلهجة مداعبة وأردته أن يوافق:

- اسمك زوربا. .أليس كذلك؟

هز رأسه موافقاً دون حماس. قلت:

- زوربا. . نريد أن نشرب نبيذاً جيداً، ونريد لحماً، عليك أن تختار لنا.

كان ينتظر مثل هذا الموقف، رفع كف يده اليسرى قريباً من الصدر، كأنه يقسم، وهز رأسه برضى، ثم سحب قائمة الطعام، وغاب.

عدنا إلى جو المطعم. الرقص يشعل الأجساد في القاعة، والموسيقى تلهب كل شيء حتى الذين يجلسون في الشرفة. كانت الأجساد تهتز وتنوس مثل الشموع، وكانت عواطف الناس سخية جياشة، تمنح دون توقف، وتجتاح الوجوه والأجساد في القاعة وفي الشرفة. وكان النبيذ يتناسب مع حرارة الرقص وسرعته، ومع حرارة النظرات التي تسقط من فوق مثل السهام.

جاء زوربا يحمل النبيذ. وقف فوق رأسي بعد أن صب قليلاً منه في القدح، يريدني أن أتذوقه (وأنا لا أعرف جودة النبيذ إلا في اليوم التالي) جرياً على العادة الملتبسة التي نقابلها في كل أنحاء الدنيا، فلا تعرف كيف تتصرف، وأغلب الأحيان، بل كل الأحيان، يكون الجواب جاهزاً هزة رأس ذكية. دلالة الموافقة.

تذوقت النبيذ ونظرت إلى زوربا أريد أن أقول له شكراً دون كلمات. ولكنه لم ينتظر، فقد صب لنا وبدا واثقاً، دون أن يقول أية كلمة، ، وقبل أن يتركنا ضرب كتفي بيد صديقة. قال:

- اشرب الآن، وستعرف أي نبيذ اخترته لكم!

شربنا أقداحنا بسرعة، وما كاد زوربا يدور بين الطاولات دورة سريعة، حتى ناديناه نطلب زجاجة أخرى. ولم يتأخر عن حملها إلينا بفخر، وسألتنا عيناه عن النبيذ، فكان أن ملأت كأسي وقدمتها إليه، وقلت له:

- في صحة زوربا.

كان حتى تلك اللحظة يشعر تجاهنا بقرابة غير متأكد منها، يريد أن يتحدث، ولكن لا يعرف إلى أي حد يمكن أن نلتقي أو نعترف له بتلك القرابة. وما كاد يعيد إليّ الكأس، بعد أن شرب منها رشفة صغيرة، حتى طلبت منه أن يحضر كأساً فارغة، وملأت الكأس وقلت له:

- هذه كأسك.

كان يريد أن يعتذر، ولكن لم نترك له فرصة. حمل الكأس وقال:

- في صحتكم.

وشرب الكأس دفعة واحدة. ثم مسح فمه بظهر يده،

وشفتاه ما تزالان تتحركان بلذة كأنه لا يريد أن يذهب طعم الخمر من فمه. وملأت الكأس مرة ثانية، وقدمتها إليه. تراجع إلى الوراء، ومد يديه الاثنتين يعتذر، ولكن رفعت كأسي وضربت كأسه وهو ما يزال على الطاولة، وقلت:

- في صحة ماركوس.

ما كدت أنتهي من هذه الكلمة حتى رأيت جسد زوربا يرتعش، وعينيه تبرقان بفرح. نظر إليّ نظرة تساؤل، يريد أن يتأكد أني قلت ماركوس. اقترب خطوة ومال عليّ يسألني:

- هل سمعت بماركوس؟

قلت بلهجة واثقة، - سمعت به. وأضفت - أريد أن أكسر آخر حلقة من التهيب والبعد بيننا.

- أنت تعرفه أليس كذلك؟

دون كلمات هز رأسه دلالة الإيجاب، وبسرعة فائقة شرب الكأس بلذة، ثم حملها فارغة، وقد ارتسمت على وجهه علامات الأسى والفرح والذكرى، وكل ما يمكن أن يظهر على وجه إنسان. وبخطوات صغيرة بطيئة استدار وابتعد!

شعرت أن عالماً كان إلى ما قبل لحظة مغلقاً، ينفتح في قلب زوربا. ومن هذا العالم تتدفق آلاف الأشياء التي كانت منسية نائمة، ولم أستطع أن أعود إلى القاعة والرقص، كنت أجد أن فجوة تزداد اتساعاً بيننا. وشعرت أن أحداً لا يستطيع ردمها إلا زوربا.

ما كادت زجاجة النبيذ الثانية تنتهي حتى برز زوربا يحمل لنا زجاجة أخرى. وضعها على الطاولة، وقال:

- هذا نبيذ يوناني. صمت قليلاً ثم أضاف - ضيافة مني - وبسرعة تركنا.

وبعد قليل لمحته يضع كأساً على طاولة صغيرة قريبة من المطبخ، وكلما سنحت له الفرصة يرفع كأسه، من بعيد ويشرب.

عندما انتصف الليل، تعب الجميع، وبدأت الفجوات تتسع وتزداد بين الطاولات، وأصبحت الموسيقى ناعمة رقيقة، بعد أن خرج كثير من «الأزواج» إلى الحدائق العامة. وكنا نرى الغزل يزداد رقة ونعومة، خاصة بين المسنين، الذين لم يشاركوا كثيراً في الرقص. مر علينا في هذه الأثناء زوربا مرات عديدة، وبعد أن تأكد أن الخمر والطعام كانا جيدين بدا فرحاً ومسروراً.

استوقفني زوربا قبل أن نغادر الشرفة وسألني:

- إلى متى أنت باق في هوسكوفو؟

- غداً أسافر!

ظهر على وجهه الأسى. ساد بيننا صمت قصير وهو ينظر إليّ، وبدا كأن فكرة ما تشغله وأخيراً سألني:

- أتحب أن نكمل السهرة في مكان آخر؟

لـم أستطع أن أرفض، فقد بدت لي الدعوة مغرية إلى درجة لا تقاوم، ولكن أشرت إلى أصدقائي وقلت:

- وهؤلاء؟

قال بهدوء، ليذهبوا ويناموا. لقد حان وقت النوم!

قلت: إلى متى أنت هنا؟

نظر إلى ساعته، وأجاب:

- نصف ساعة أخرى.

- سأعود إلى هنا بعد قليل، إذا نامت.

وأشرت إلى زوجتي وأضفت: سوف نسهر.

ابتسم ابتسامة صغيرة مشجعة وغمز بعينيه.

ودّعناه كأننا لن نراه مرة أخرى. وخرجنا.

2

بعد نصف ساعة ونحن نخرج من الفندق، لفحتنا الظلمة والريح الباردة، فاشتعل النبيذ في أجسادنا، وتحركت فينا رغبات مجنونة: أن نركض في الشوارع، أن نرقص، أن نصرخ.

كانت خطواتنا تتغير في كل لحظة، تسرع، ثم تتوقف عند بعض الأشجار. كنت أنظر بفضول إلى الأجساد المتحدة، والآهات تندى عنها مُحْرِقَة كاوية، ولكن زوربا كان يجرني بخشونة لكي لا أخدش هذه اللذة، لا أقطعها.

بعد أن تكرر وقوفي، نظر إليّ بغضب وقال:

- يجب ألا نُفْسِدَ هذه اللحظات المقدسة أو نلوثها بتدخلنا، أو بنظرتنا المتوحشة.

بدأ يردد أغنية يونانية، كنت أعرف بعض كلماتها - دون أن أعرف معناها بدقة - أخذت أردد معه، ولكن تدخلي كان يفسد عليه النغم، فبدأ ينظر إليّ ولا يعرف كيف يتصرف. كانت نظرتُه نظرةَ عتاب، ويده في الظلمة تشد على يدي في رجاء أخرس، لأن أتركه يغني، لأن أتوقف.

عندما ارتفع صوته كان مبحوحاً خشناً ولكن بدا له عذباً مؤثراً، فأخذ يميل رأسه ويهزه مترنماً، ويزداد طرباً وهو يتشرب ذلك الصوت، في محيط من الصمت الذي لا تسمع خلاله سوى الآهات التي تنبع من المقاعد والأشجار.

لم أتركه وحده يغني، ففي مرحلة من الطريق، توقفت بعناد، وقلت له:

- لقد انتهى دورك يا زوربا، الآن أنا أريد أن أغني.

هز رأسه موافقاً. لكن ما كاد يسمع صوتي في الظلام حتى أخذ يردد - أمان.. أمان. ونظرنا في وجوه بعضنا وبدأنا نضحك ونضحك حتى جلسنا على الأرض.

بعد مسيرة قصيرة وصلنا إلى بار لا يختلف منظره من الخارج عن أي بيت. كان بيتاً حقيقياً حتى الباب الخارجي بدا مغلقاً، ولكن زوربا دفعه بيده دفعة صغيرة، فانفتح، وطلب إليّ أن أدخل.

ما كدنا نجتاز الدهليز حتى امتلأت أنوفنا برائحة جديدة، رائحة الخمر والدخان. تقدمت بحذر، ويد زوربا تطوّق كتفي، تدفعني، فلما رآنا الذين في الداخل، هدأت أصواتهم حتى توقفت، وتوجهت إلينا العيون. وبعد لحظة عادت الألفة إلى كل شيء. مر زوربا على أكثر الطاولات، توقف، ضحك، شرب، قبّل امرأة كانت مع مجموعة من الجالسين. أما أنا فقد

شعرت بألفة في المكان وكأني أعرفه منذ عشرات السنين!

كان باراً حقيقياً، غرفتان متصلتان لا يفصلهما سوى عقد السقف الذي يشكل قوساً عالياً ينتهي بجدران طويلة ناعمة، تزيد قليلاً عن مساحة طاولة صغيرة وراء كل جدار. ثم تنتشر الطاولات. في الوسط طاولة كبيرة مستديرة، وعلى الجدران عشرات الأشياء المعلقة: عناقيد البصل والثوم، سيوف، طيور محنطة، بسط ملونة بألوان زاهية، بندقية قديمة، ثم زجاجات نبيذ مقششة ومعلقة بعناية في عدة أماكن. أما البار فقد كان يشغل الجدار العريض الذي يواجه الباب مباشرة، وهناك كانت عشرات، بل مئات الزجاجات المصفوفة بعناية. وعلى الأرض مجموعة براميل ترتاح بفخر وهي تمتلىء بالنبيذ. وفي جهة اليمين، على الجدار القريب، كانت مجموعة هائلة من الأكواب، لا أعرف كيف جمعت ومن الذي جمعها، أكواب بأشكال وألوان وأحجام لا تخطر على بال.

بعد أن جلسنا، وُضعت أمامنا زجاجة نبيذ وثلاثة أقداح. وخلال لحظة انضم إلينا شخص عرّفني عليه زوربا، وقال ليخلق جواً سريعاً من الألفة:

- لقد أسميتني زوربا.. وهو يوناني، يمكن أن تسمّيه ما تشاء.

كان في مثل عمر زوربا، يتجاوز الخمسين بقليل، يبدو حزيناً أقرب إلى التشاؤم، لكن ما كدنا نشرب الكأس الثاني حتى قال:

BIBLIOTHEQUE

- أنا سقراط.. ولكن دون حكمة! ضحك.. وضحكنا وشربنا وتحدثنا عن كل شيء.

أما كيف بدأ زوربا الكلام ولماذا تحدث عن تلك الأمور، فإن بعض التفاصيل تغيب الآن، ولا يبقى سوى صوت زوربا وهو يتحدث:

- كنت ما أزال فتى صغير السن، عندما استهواني البحر، فقد سافرت قبل أن أبلغ الرابعة عشرة إلى رومانيا وأوديسا، وسافرت إلى استنبول وحيفا. كان البحر بالنسبة لي كل العالم، والأوقات القليلة التي كنا نقضيها في الموانئ، كانت مثل السجن. كنت أشعر بالضيق وكنت أنتظر اللحظة التي تصفر فيها الباخرة صفيرها الثالث لكي تتحرك. وعندما تغيب عنا الطيور، ولا نعود نرى سوى البحر، كنت أشعر بسعادة لا حدود لها. وقد ظللت على ظهور السفن سنين طويلة، أسافر من مكان لآخر، حتى وقعت الحرب.

وذات يوم سمعت بماركوس، قلت لنفسي يا درتياكوس يجب أن تموت فوق أرض اليونان وليس في البحار البعيدة. يجب أن يتحول دمك إلى نبيذ جيد ولا يضيع في البحر. كانت اليونان تلك الأيام، كما هي الآن، معذبة مهانة، وجاءت صيحة ماركوس لتحرك كل شيء في قلبي. فما كادت الباخرة تصل البيريه حتى نزلت وقبّلت الأرض، ونظرت إلى الباخرة وبصقت، وقلت بصوت عال ليسمعه كل من كان موجوداً: وحق السيدة العذراء لن أركب البحر مرة أخرى.

كنت ملكاً في البحر، لكني سمعت صرخة ماركوس، فقلت لنفسي: يا درتياكوس إن اليونان بحاجة إليك، يجب ألا تبتعد، لقد منحتك اليونان الدم الذي يغذيك واللغة التي تتكلم بها، والآن تطلب إليك أن تدافع عنها..

كانت اليونان تعيسة ويجب أن نفعل شيئاً..

غادرت اليونان فوراً وذهبت إلى الجبال، كانت رائحة الجبال غريبة، لذيذة، لا تشبه رائحة البحر، فالزعتر ورائحة التراب بعد المطر جعلاني أبكي أكثر من مرة. بكيت ذات ليلة كثيراً وسألت نفسي لماذا لم أكن أحب اليونان بالمقدار الكافي؟ لماذا نسيتها تلك السنوات الطويلة؟ وشتمت نفسي كثيراً وأنا أركض مثل كلب على ظهور السفن، أرفع الحبال، أنزل الحبال، وألمّع الحديد.

توقف لحظات. نظر إلينا ثم رفع كأسه وقال:

- في صحة تلك الأيام.

شربنا، وصمتنا، كنا نريده أن يتحدث. وتاه في أفكار بعيدة، ثم هز رأسه بأسف وأضاف:

- الآن انتهى كل شيء. إنها أيام بعيدة.

المهم أني أصبحت في عداد جيش ماركوس، كنا نعيش حياة الفلاحين، نزرع ونحصد، نعصر العنب ونصنع النبيذ، نحلب البقر، وفي الليل نتحول إلى جنود، نحرس الأرض والبشر، كان التعب لذيذاً. ليته يعود مرة أخرى. أما الآن فلم تبق سوى الذكرى!

لم يكن سقراط يسمع كل شيء. فقد قلب شفتيه أكثر من مرة، وتلفت، ولكن الكلمة الأخيرة لم تفته، قال لزوربا:

- الذكرى طريق المستقبل، وليس طريق الماضي كما يقول الكثيرون. إن شعباً يتذكر جيداً يفعل الكثير.

أما الذين ينسون، فلا يفعلون شيئاً.

نظر إليه زوربا نظرة بين الغضب واللامبالاة، وقال:

- هراء، أوهام، وسوف تتأكد أنت بنفسك من ذلك، عندما تموت من الذكرى.

وسألت زوربا أريد أن أمنع خصاماً كان يبدو لي قريباً:

- زوربا، هل قضيت فترة طويلة في جيش ماركوس؟

نظر إليّ وقال:

- لم تكن فترة طويلة، ولكنها كانت رائعة.

سألته مرة أخرى:

- أيهما أجمل كذكرى، حياة البحر أم حياة الجبال؟

فكر، كأنه يستعيد حياته كلها، ثم قال:

- البحر طير لا يتوقف، طير مهاجر. أما الجبال فهي أمنا، وعنها يجب أن يدافع الإنسان. الآن، لا أريد أن أتذكر من البحر شيئاً، أما الجبال فأتذكر منها الخضرة والصخور وقطعان البقر، أتذكر الرجال، أتذكر الخراف التي كنا نشويها أيام الربيع.

قلت له:

- زوربا، إنك تتكلم اليوم كرجل سياسي، وكأنك لم تكن بحاراً، أريدك أن تتحدث كإنسان.

- لم أكن أعرف السياسة عندما نزلت في البيريه، قلت لنفسي: درتياكوس يجب أن تذهب إلى الجبال. أما السياسة فقد جاءت في وقت متأخر، ربما بعد الهزيمة. أما عندما كنا في الجبال، فقد كنا نعيش كرجال أحرار، وبهذا الدافع عشنا هناك. وحاولنا. ولكن!

- هل رأيت ماركوس؟ هل عرفته عن قرب؟

ابتسم ابتسامة حزينة، وبتواضع أجاب:

- لقد رأيته، عشت معه فترة قصيرة، ولكن الآن لم يبق شيء!

- ولماذا حاربتم؟

- لقد حاربنا من أجل يونان جديدة، أقل عبودية، ولكننا فشلنا، كنا أغبياء.

- هل حاربتم بشجاعة؟

- كنت كثيراً ما أخاف، وفي بعض الأوقات كنت أحاول أن أدافع عن نفسي أكثر مما أدافع عن أصدقائي وعن الأرض.

وبعد فترة صمتٍ أضاف: كنت جباناً.

وتدخّل سقراط بلهجة معاتبة:

- لكنك كنت شجاعاً، لقد حاولت الكثير. الأمر ليس متعلقاً بك، تكفيك الجروح في جسدك شهادة لك!

قلب زوربا شفتيه بازدراء، وقال بلهجة غاضبة:

- الجروح ليست دائماً شهادة حسنة.

- «والموت ليس دائماً بطولة». كذلك ردّ سقراط.

وعدت أسأل زوربا:

- وهل فقدتم الكثيرين؟

- فقدنا أحسن الرجال، أشجع الرجال، أما الذين كان يجب أن يموتوا، فلم يفلحوا! وأشار إلى نفسه، ثم بصق بغضب.

قلت له:

- في صحة الرجال الذين ماتوا.

رفع كأسه وقال قبل أن يشرب:

- ولكنهم ماتوا، يا صديقي، أي صحة بقيت لكي نشرب من أجلها؟

- من أجل ذكراهم. قلت مواسياً.

- لم يكن من المفترض أن يموتوا. كانوا طيبين، كانوا يحبون الناس. آه لو عاشوا!

قلت له:

- كم عدد الرجال الذين ماتوا؟

- أتعرف عدد الورود في الحقول؟ أتعرف عدد سنابل القمح؟ أتعرف عدد نجوم السماء؟ لقد قدمت اليونان مثل هذه الأعداد!

- والنتيجة؟ سأله سقراط.

- النتيجة؟ وهل يجب أن تكون هناك نتيجة؟

- ولماذا لا تكون؟

- سوف تكون يوماً.

- ومتى يكون ذلك اليوم؟

- سأراه بالتأكيد. أما أنت فلن ترى شيئاً.

قلت مقاطعاً:

- في صحة الأيام الآتية!

وشربنا.. وفي لحظة انتفض زوربا وقال:

- لم نأت إلى هنا لكي نبكي. الأيام القديمة انتهت، ويجب أن تبدأ الآن أيام جديدة.

سألته وقد غلبتني فكرة متشائمة:

- زوربا، هل لك أولاد؟

- ثلاثة.

- أين هم؟

- واحد في باريس، والثاني في السجن، وابنة انصرفت لزوجها وأطفالها، أو كما تقول للحياة الجديدة!

- ومتى رأيتهم آخر مرة؟

- جاء قسطندي من باريس إلى هنا السنة الماضية، أمضى ثلاثة شهور، أما ديمتري فلم أره منذ كان طفلاً صغيراً. تركت اليونان وعمره خمس سنوات.

- والآن؟

- الآن عمره اثنتان وعشرون، وخمس. سبع وعشرون، ثمان وعشرون سنة.

- وابنتك؟

- لقد جاءت قبل سبع سنوات، ولا أعتقد أنها ستأتي مرة أخرى!

- لماذا؟

- جاءت تقول أشياء حقيرة. تطلب إليّ أن أكف عن الأعمال التي لا تناسب سني، وكأني أقوم بأعمال خسيسة، وترجوني أن أعود إلى اليونان لأعيش هناك. شرط أن..! وبصق على الأرض.

قلت لها - لأني أحب اليونان وأريد أن أعود إليها فيجب ألا أكف - ولكن ماذا تقول للنساء؟

أردت أن أغيّر الموضوع، فقلت له:

- ما رأيك في النساء.. يا زوربا؟

نظر إليّ وابتسم، ثم حمل كأسه وقال:

- في صحة جميع نساء الأرض، النساء الجميلات.

وشرب كأسه دفعة واحدة، ثم أضاف: ولكن لوقت قصير.

وصب كأساً جديدة وعاد يقول: النساء رائعات إن لم يكنّ زوجات. عندما تصبح المرأة زوجة فإنها تصبح عذاباً.

- وأين زوجتك؟

- ماتت وأنا في البحر. قالت آخر مرة رأيتها فيها، إنها تموت شوقاً إليّ، قلت اتركي الشوق لي وموتي! ولم تنتظر طويلاً، إذ ما كدت أعود من رحلتي حتى وجدتها ميتة، وكان العشب فوق قبرها قد نما أكثر من ذراع.

- وكيف عاش الأطفال؟

- وأيضاً خلق الإله حلاً لكل مشكلة، ما عدا مشكلة اليونان. رفع رأسه وقال: اشربوا. بعد أن شربنا أضاف: كانت لي أخت أحبّت رجلاً، وعاهدها. على الزواج، ولكن ذات يوم قيل لها إنه سافر ولن يعود.. فحزنت لذاك كثيراً ولبست عليه السواد. اعتبرته ميتاً، ورفضت أن تتزوج. ولما ماتت زوجتي استمرت تلبس السواد وتربّي الأطفال.

سألته:

- وهل عاد بعد ذلك؟

- لم يعد الحيوان، غرقت به السفينة. لو عاد لفدى بدمه أربع أو خمس أشجار من الكرمة. لو انضم إلى ماركوس لخلصه من البحر وأختي.. ولكنه مات في البحر. لم يذكره أحد سوى أختي، كانت تبكي عليه باستمرار، وترك بكاؤها أثراً في نفوس الأطفال، فهم أغلب الأحيان حزانى، كأنهم يرون أشباحاً أو يشكون مرضاً. لا أدري لماذا يحب الناس أن يكونوا هكذا؟

- وأختك ما تزال تعيش؟

- ما تزال تلبس السواد. تصوَّر، في قريتنا كلها لم يبق رجل.

شرد بفكره، ثم رفع كأسه وقال: في صحة يونان جديدة، ملأى بالرجال. وشربنا بحزن، وبعد فترة صمتٍ أضاف: زار أحد الصحفيين اليونان قبل فترة، ومرّ في قرى كثيرة، ثم كتب، أتعرف ماذا كتب؟

- لا. ماذا كتب؟

- كتب يقول إنه لم ير في قرى اليونان رجالاً، لم ير سوى الحيوانات والأطفال والمهابيل. أما الرجال فقد هاجروا.

قلت له مواسياً:

- هذه كتابة صحفية مبالغ فيها.

ردّ بانفعال:

- الذين لم يموتوا هاجروا، والذين لم يموتوا ولم يهاجروا، ينتظرون دورهم في الموت أو الهجرة.

- ولماذا يهاجر الناس؟ سألته.

نظر إليّ، وردّ بلهجة ساخرة:

- كنت أتصور أنك ستسألني لماذا يموت الناس. وبعد فترة صمتٍ قال: ولماذا لا يهاجرون؟ هل يجب أن يموتوا في الحدائق الملكية؟

- زوربا.. لا أفهم عليك!

قال بنفاد صبر:

- طبيعي ألا تفهم. هذا الذي تراه أمامك. قضينا سبعاً وعشرين سنة معاً، هنا في روسيا، وحتى الآن لا يفهم عليّ. إنه يفكر طوال الليل والنهار، مثل بومة، يفكر، والنتيجة لا شيء. حتى جثته ستبقى خارج اليونان.

نظر إليه سقراط نظرة قاسية، وقال بانفعال:

- حيوان قذر، لا تعرف سوى الأكل والشراب، وعندما تنتهي منهما تركض وراء النساء.

- أفضل ألف مرة من أن أبقى مشلولاً، لا أفعل شيئاً سوى أن أفكر في أشياء سخيفة.

- وهل الحيوانات تستطيع أن تفكر؟ إنك لا تستطيع حتى لو أردت.

- لا أريد أن أتحول إلى بومة!

- إن الذي قادنا إلى مثل هذه النهاية أشخاص يشبهونك. أو بالأحرى أنت واحد منهم.

- هل تشتم ماركوس؟

- لا.. ولكن لو فكرنا حينذاك جيداً لما انتهينا هذه النهاية البائسة!

- ولماذا لم تفكر أنت؟

- كنت حيواناً. مثلك الآن، لا أعرف التفكير.

- وهل عرفته الآن؟

وضحك زوربا ضحكة مدوية، وبعصبية قال يوجه الكلام إلينا:

- يجب أن تكفّ الآن عن هذه الحماقات، وأشار إليّ يخاطب سقراط، لم ندعُ هذا الرجل ليكون حكماً بيننا، ولنزعجه بأحاديثنا التي أعدناها، منذ ذلك اليوم وحتى الآن، مئات المرات.. إنه يسافر غداً، ويجب أن تبقى في ذهنه صورة جيدة عن اليونان.

صفق بيديه وطلب نبيذاً، وشربنا من جديد. قلت محاولاً تغيير الموضوع، مع أني كنت أريد أن أسمعهما يتناقشان:

- لم أخطئ عندما سميتك زوربا.. إن بينكما شبهاً كبيراً، كلاكما يحب الخمر والنساء ويكره إشغال الفكر.

- وأنت.. ألا تحب الخمر والنساء؟ هكذا سألني.

- ولكني أحب أشياء أخرى. وصمتّ لحظة أريد أن أرى أثر كلامي، فوجدت وجهه جامداً، قلت: لو لم أقرأ ماركوس لما تعارفنا هذه الليلة.. أنا أحب القراءة!

- على كل إنسان أن يفعل شيئاً، أن يحب نوعاً من الحياة. أنا أحب العمل وأنت تحب القراءة، أما هو فإنه يحب التفكير! لا غير. ووضع يده على خده وأمال رأسه قليلاً واستند إلى الطاولة ليمثل دور إنسان يفكر.. وأضاف: انظر إليه، أصفر الوجه مهموماً. إنه يصغرني بخمس سنوات. لا يشرب إلا قليلاً ولا يحب النساء ولا يسهر إلا ليلة السبت. سيموت من التفكير، ولكن ماذا كانت نتيجة هذا التفكير؟

ردّ عليه سقراط بلهجة غاضبة:

- ولكن كيف قامت لليونان حضارة كبيرة لو لم يكن المفكرون هم الذين قادوا الدولة؟ أما إذا كانت ستقوم حضارتنا على أمثالك، فأقول لك منذ الآن: لا تتعب، إن حضارة مثل هذه لن تقوم.

- ولن تقوم حضارة مثل تلك مرة أخرى.. حتى لو كنت إمبراطوراً.

- لماذا؟

- لأنها لا تصلح لهذا العصر.

- لا.. لأن المفكرين لا يلعبون دوراً هذه الأيام.

قلت لزوربا أريد أن أخفف من جو الخصومة، وأوفق بينهما:

- إن الفكر والعمل متلازمان. ولا غنى لواحد عن الآخر!

ردّ زوربا بحدّة ساخرة:

- ولكن قل لي لماذا لا يفكر الإنسان بشكل جيد؟ لماذا لا يفكر في النساء والخمر والرقص وآلاف الأشياء الجميلة؟

- إن الإنسان يفكر في كل شيء. ولا يمكن أن يقتصر التفكير على أشياء دون غيرها.

- ولكنه يكره الحديث عن النساء!

- لكل امرئ رغبات. والناس يختلفون، أجبت.

- أما أنا فأحب النساء. ولكن لا أحب امرأة بعينها، لقد

علّمني البحر أن أكره العبودية، وعلّمني الجبل أن أحارب كل الأشياء القديمة المتفسخة.

وهبَّ سقراط يقول له:

- ولكن ماركوس لم يقل لك أن تقضي وقتك في مطاردة النساء!

- ومن يعمل بيديه هاتين أكثر من عشر ساعات كل يوم؟

ومدّ يديه وقلّبهما أكثر من مرة، وهو ينظر معنا إلى اليدين الممدّدتين.

قلت:

- كان زوربا ذاك، يأخذ خصلة شعر من كل امرأة يقابلها. فماذا تأخذ أنت؟

ابتسم برضى وقال:

- أنا لا آخذ.. أنا أعطي النساء. مجنون زوربا، ماذا يفعل بالشعر؟ هل يريد أن يورثه لأولاده؟ هل يريد أن يفاخر به أمام الناس؟

- وماذا تعطي أنت؟

- أعطي أعز ما عندي، ووضع يده على قلبه وأضاف هامساً: أعطيهن قلبي.

قفز سقراط من مكانه، كأن حية لدغته، وقال له بانفعال:

- أنت حيوان، حيوان قذر، هل تعرف العواطف؟ إنك تضحك على النساء، تغرر بهن!

أجابه زوربا بهدوء:

- لو كنتَ امرأة لعرفتَ أي قلب لديّ، ولكن ما دمت تفكّر دائماً فليس لديك الوقت لتعرف ما هي الأحاسيس!

- إني أرى كل شيء. أنت لا تملك ذرة عاطفة، أنت متبلد الإحساس، لا تعرف إلا أن تغرر بالنساء. لقد علّمك البحر وعلّمتك الموانئ التي توقفت فيها والنساء القذرات اللواتي التقيت بهن كيف تكون معسول الكلام، كاذباً، مخادعاً. فإذا وصلت إلى ما تريد أصبحت أخرس مثل الحجر الأصم!

- ولماذا لم يعلّمك فكرك والكتب التي تقرأها كيف تكون صادق الإحساس مع المرأة؟

- كنت مخلصاً لزوجتي حتى ماتت.

- بل لقد ماتت لأنك كنت مخلصاً لها.

- لا تتحدث عن الموتى، اتركهم في قبورهم يرقدون بسلام.

- ليرحمها الله، ولتباركها العذراء المقدسة.

- وتتكلم عن العذراء يا صاحب اللسان الملوث.

- عن أي شيء تريدني أن أتكلم؟

- أتكلم عن النساء الفاجرات، عن كل شيء قذر مثلك.

- قلت لك إن الكتب أفسدتك في البداية، وبعد أن تركت الكتب، وتحولت إلى بومة لم يعد فيك شيء إلا وفسد.

هز زوربا إصبعه بتهديد وأضاف:

- إذا تكلمت كلمة أخرى ألقيت بك في الشارع. وهناك مع الكلاب تستطيع أن تفكر جيداً.

- ليس الخطأ خطأك أنت. إن من يجلس معك يلوث عقله وقلبه، ولكن يجب أن تكون متأكداً أنك سوف تدفع الحساب يوماً. سوف أترك هذه الجيفة المتحركة.

وأشار إلى زوربا من رأسه إلى رجليه، وبغضب وقف وأَحْكَمَ أزرار سترته وحيّاني باحترام مبالغ فيه وخرج.

ما كاد يغيب حتى بصق زوربا على الأرض، ثمّ مسح بصاقه برجله وقال:

- ماذا تفعل؟ لقد مرت تلك السنين الطويلة، ونحن نقول لبعضنا عندما نلتقي إننا سنعود غداً، ولكن السنين تمر، ونحن في مكاننا لا نتحرك، لقد تحولنا إلى وحوش كاسرة.

وبعد فترة صمتٍ قصيرة أضاف:

- إنك لا تستطيع أن تمضي سهرة كاملة مع يوناني آخر! نبدأ أول الليل رفيقين، مسالمين، نحترم بعضنا، ونصب الأقداح باحترام، وننتهي بأن نضرب بعضنا. بائسون نحن اليونانيين لقد تعبنا. أنا أفهم يا بولس، ولكن ماذا أستطيع أن أفعل؟

قلت له:

- هل تتخاصمون كثيراً؟

- ماذا نفعل إذا لم نتخاصم؟

- وهل يطول خصامكم؟

- سيأتي إليّ في الغد، وإذا لم يأتِ فسوف أذهب إليه. سأتحول إلى كاهن أتلقى اعترافاته، وسيكون هو كاهني، وينتهي كل شيء. ولكن الأمر نفسه يتكرر في الليلة ذاتها إذا التقينا.

- ولماذا تختصمون؟

- كما رأيت. نريد أن نعود، والعودة لا تأتي. ما تزال بعيدة، وليس أحسن من المشاكل وسيلة للانتظار!

- ولكنكم تعذبون أنفسكم بهذه الطريقة.

- إن هذه الطريقة أقل عذاباً من الانتظار الأصم.

- ولكنها لا تقرّب العودة خطوة واحدة. بل ربما أبعدتها.

- نريد شيئاً نفعله، أو نفسر خيبتنا على أساسه!

قلت مواسياً:

- أرجو الله أن تعودوا.

- إن الله ترك اليونان واليونانيين منذ وقت بعيد، ولم يبق على اليونانيين إلا أن يخلصوا أنفسهم. أما إذا اعتمدوا على الذي نسميه الله، فإنهم سيبقون تحت أحذية الملك والجنرالات. سنعود. يجب أن تكون مقتنعاً أننا سنعود. اليوم قبل طلوع الشمس قد نعود. وإذا لم يكن اليوم فغداً أو بعده، ولكننا سنعود. وصمت قليلاً ثم أضاف بحماسة: وأنت يجب أن تأتي لترى اليونان. ستكون ضيفي، تعال لترى اليونان.

- رأيتها قبل سنوات.

- ولكني لا أدعوك إلى هذه اليونان. أدعوك إلى يونان أخرى تختلف عن تلك التي رأيتها، يونان جديدة حيث الناس يمشون في الشوارع رافعي الرؤوس، ينظرون إلى القمر، يغنون بفرح، ويشربون الخمر من أجل أن يرقصوا، لا من أجل أن يبكوا ويختصموا! إذا التقينا هناك يوماً سوف ترى أي يونان أدعوك إليها! أما الآن. هز رأسه بأسف ثم أضاف: أية يونان يمكن أن ترى؟

صمت قليلاً يفكر. ثم أكمل: إنها يونان الحمير والمهابيل والجنرالات، الناس يقتلون في الشوارع، ويموتون في الجزر البعيدة، بعد أن يفتك بهم المرض! لا. لا أريدك أن تذهب إلى هذه اليونان.

بكلمات بدت لي باردة، لا تناسب كلماته، قلت:

- سأجيء. سنلتقي هناك.

- وسوف نسافر إلى سالونيك وكريت. وسنقضي أياماً في الجزر البعيدة التي كانت يوماً ما منفى، سنحولها إلى جزر للعشاق والنساء الجميلات.

وبدأ يحلم. تركته دون أن أفسد عليه المناظر التي يراها أمام عينيه قريبة، واضحة، جميلة.

بعد أن غاب في أحلامه، أفاق فجأة، ونظر إلى الكؤوس وزجاجة النبيذ نظرة قاسية وقال:

- ألا نشرب شيئاً بعد، يجب أن نشرب.

وجاءت زجاجة نبيذ جديدة وشربنا.

تغير الجو. تحول إلى الخدر اللذيذ الذي يتسرب مع النسمات التي يحملها الباب عندما ينفتح بين فترة وأخرى.

التفت زوربا إلى الناس الموجودين. كانوا جماعات صغيرة، مبعثرة. التفت بغضب وقال:

- هل أدفنكم؟ لم يبق إلا أن أجر الكاهن. ليأتي ويقوم برش الماء المقدس على هذه الجثث. وبعدها أواريكم في التراب. وصمت لحظة قصيرة ثم أضاف: أتشربون الخمر لتتبولوها بعد قليل؟ لماذا لا تغنون، لا ترقصون؟

ولم ينتظر أحداً، نهض، أمسك بيدي يجرني، ووقفنا، ثم جر أقرب الأشخاص إلى طاولتنا، وابتدأت حلقة الرقص تتسع وتنشط حتى لم بيقَ أحداً لم يشارك. رقصنا تلك الليلة حتى كلّت أقدامنا، حتى تساقطنا على الأرض الواحد في أثر الآخر.

وفي لحظة وقفت تلك المرأة وغنّت، ولا أدري كيف يبقى الإنسان عاقلاً بعد تلك الليلة. كان غناء يفوق في صدقه وجماله كل شيء. الرجال جلسوا على الأرض وقد انتابهم الذعر لهذا الصوت الذي لم يتوقعوه ولم يحلموا بمثله، والمرأة التي لا تكاد تنتهي من أغنية حتى تبدأ بغيرها، وكل شيء يلتهب، يشتعل، ينفجر.

كم ندمنا أن ليلة مثل هذه يمكن أن تنتهي.

3

في اليوم التالي، عندما طلبت من موظفة الفندق جوازات السفر، نظرت إليّ طويلاً وابتسمت. وقبل أن تعطيني الجوازات رأيتها تدفع بزجاجة نبيذ كبيرة، موضوعة في سلة من القش، وقد عُلّق فيها ورقة صغيرة مكتوب عليها:

«سنشرب أطيب من هذا النبيذ مائة مرة.. لا تنس أن تأتي».

وبعد ذلك العنوان.

حملت الزجاجة إلى السيارة، وكأنني أحمل معي جثة عزيز فارقته إلى الأبد.

دمشق 11/ 1969

قصة تافهة

بعد عزلة دامت فترة طويلة، وبعد تفكير وتعب وحزن قررت الذهاب ذاك اليوم إلى مقهى الأفراح. لقد ألح عليّ بذلك صديق رسام حين رآني حزيناً ساهماً وأقرب إلى المرض. لم يترك الأمر غامضاً وهو يلح عليّ، وإنما قال:

- تفاعل مع الناس، عش بينهم - أنظر إليهم.. تتعلم الكثير، ويمكنك بعد ذلك أن تكتب!

ذهبت إلى المقهى وعثرت على مكان في الزاوية الشرقية. ومنذ لحظة دخولي، وحتى اللحظة الأخيرة، ملّت نفسي كل شيء، كانت تسيطر عليّ فكرة واحدة أن أقذف نفسي تحت عجلات سيارة مارة... وأموت.

هل كسبت معركة؟ هل خسرت معركة؟ هل حدثت معركة أساساً؟

لا أعرف.

يجب أن تصدقوا.. منذ اللحظة الأولى، وفيما أجتاز عتبة

مقهى الأفراح، ولأول مرة في حياتي، كنت أعاني شعور المحارب. لا أستطيع أن أحدد أي معركة كنت أفكر فيها، وبأي نفسية دخلت. لكن من تجارب الحياة التي لا تنتهي تعلمت الكثير.. وما زلت مستعداً لأن أتعلم.

كانت الريح الباردة تهب قوية عاتية، وكان التعب قد هدّني بعد مشاوير طويلة مجدبة.

كنت في ذلك الوقت قريباً من المقهى، وكأي أمر بسيط، لا يفكر فيه الإنسان كثيراً، انزلقت.

دفعت بيدي باب المقهى الخارجي، واجتزت الفسحة الصغيرة بين البابين ودخلت.. كانت رائحة الدخان تملأ الجو، والبشر ينظرون في الفراغ أو هكذا بدوا لي. وبعد نظرة اجتزت خلالها المقهى من أوله إلى آخره.. وجدت طاولة فارغة، بعيدة.. فجلست.

كنت أدفع عن نفسي الريح الباردة. وفي غمرة المعركة الأولى رأيت أني أعقد هدنة مع بعض الأعداء.. وبهدوء الحمل الوديع طلبت فنجاناً من القهوة، ومع نفثات الدخان ورشفات القهوة بدأت أتأمل الجدران الخضراء والوجوه والريح الباردة التي تضرب المارة والأشجار.. كنت في تلك اللحظة أريد أن أفكر بهدوء أن أنتهي من المعارك الأساسية: الإفلاس أولاً وقبل كل شيء، ثم فراغ الرأس.. وأخيراً الضجر.. أما هذه الريح الباردة التي أراها تجوب السماء والأرض.. فقد انتهيت منها.. على الأقل مؤقتاً.

ما إن شعرت بالدفء حتى بدأت أعيد تصنيف خصومي.

يجب ألا أكون مستسلماً إلى هذه الدرجة تجاه الكرسون. فأنا أدفع، مثل أي إنسان آخر تماماً، ومن حقي إذن أن أمدّ رجليّ بحرية. أن أنظر إلى الوجوه بجسارة. ومن حقي أيضاً أن أنفث الدخان إلى أعلى.. ولكن تلك المدفأة الرمادية التي تمنح المقهى كل ميزته في هذا اليوم البارد، لماذا هي بعيدة إلى هذه الدرجة؟ وأحسست بلسعة البرد التي تمر فوق جسدي، إن غيري في وضع أفضل. تمنيت لو كنت قريباً من المدفأة.. إن الذين يجلسون حول النار الآن يدفعون مقدار ما أدفع، بالتأكيد لا يدفعون أكثر، وربما كان بعضهم لا يدفع.. الرجل العجوز الذي دخل المقهى قبل لحظات، مثل كلب مهزوم، سحب كرسياً بجرأة وجلس قرب المدفأة. أخذ ينشف منديله المبتل. لم يطلب أي مشروب. لقد راقبته منذ لحظة دخوله، نظر إليه الكرسون في البداية بشيء من المرارة.. ثم نسيه نهائياً. وبعد أن امتلأ دفئاً غادر المقهى دون أن ينظر إلى أحد. دون أن يدفع.. لقد كان محظوظاً ذلك العجوز.. برجه الجوزاء!

وتلك الطاولات القريبة من المدفأة أيضاً!

هؤلاء الناس يلعبون الطاولة منذ الأزل، وحتى الآن لم يحسوا بميزة الدفء! لماذا لا يتركون أماكنهم لغيرهم؟ إنهم لا يعانون الإفلاس.. والضجر.. إنهم سعداء! لا يدري أحد أية أبراج هي أبراجهم!

وذاك الذي يجلس وحده، قريباً من المدفأة! إنه يجلس بهدوء الأصنام، أمامه مغلف أصفر، ينظر إلى الوجوه بتأمل فلسفي، لا يدخن، لا يبتسم، لا يشعر بأية ميزة. هل يحس مثلي أن الحياة ملأى بالشقاء والتعاسة؟.. ليته يتخلى عن هذه الصلابة القاسية، ويترك التأمل الفلسفي لوقت آخر.. لو فعل لكوّنا جيشاً لا يقهر، لو انضم إليّ لبدأنا هجوماً ضد الكون كله!

والرجال الآخرون؟

رجل يضع على رأسه قبعة من الفرو، إنها دافئة لدرجة الألم، تكفيني غطاء طوال أيام الشتاء.. لا أريد شيئاً غيرها. ومع ذلك لا يزال يضغط على رأسه، ويجلس قريباً من المدفأة!

وذاك الذي يلفّ رقبته بشال صوفي يصل إلى السماء.. إنه يتأمل اللاعبين وأرى حركته، وكلماته تتردد بين لحظة وأخرى.. إنه يقترح، يناقش، يتدخل، ثم يعود إلى الحزن كله.. ويجلس أيضاً قريباً من المدفأة!

وهنا.. في هذه الزاوية، لا أعرف من أين تأتي الريح. ريح باردة، اجتازت القطب وتوجهت إليّ مباشرة. إنها معادية، لئيمة.. تترك الجميع وتصل إليّ مباشرة. ونحن الجالسين بعيداً عن المدفأة.. وتصلنا الريح الباردة نفسها. هل يجب أن ندفع نفس ما يدفعه أولئك الذين يجلسون قريباً من المدفأة؟

إن خطأ ما يميز بين الناس.. ليس في المقهى فقط، هذا

الخطأ يطاردني في كل مكان: في البيت حين أحلق ذقني، في الشارع حين أصطدم بالمارة، في وجوه الموظفين، عندما أراجعهم بشأن الطلبات التي قدمتها منذ شهور.

لا يمكن أن يجلس الجميع حول المدفأة. كما لا يمكن للجميع أن يجدوا عملاً.. يجب أن تبقى الفروق بين الناس. ومع ذلك كلنا نشرب القهوة وندفع ثمنها.. ونُدعى لخدمة العلم!

جلست في حالة دفاع عن النفس. إن أية طاولة، في أي مكان من المقهى أكثر دفئاً من الشارع، من الريح الباردة. لأشكر الله إذن لأني لست في الشارع. ولكن غداً؟! لأترك هذا العدو المتخفي.. ومن أجل أن أكون هنا الآن يمكن أن أدفع دون أن أشعر بالهزيمة، ليس ذلك فقط، إنني أدفع مقابل فنجان القهوة.. أعرف أن هذا لا يكلف كثيراً، ولكن أي شيء يباع بسعر الكلفة؟ أي إنسان يقدر بقيمته؟ لماذا فتحت المقاهي والسجون والمصحات العقلية؟ إن كل شيء قابل للتجارة، وكل شيء يمكن أن يعطي ربحاً!

أجلس إذن في مكان دافئ، مقارنة ببرودة الشارع. ولكن توزيع الدفء متفاوت إلى درجة أن كل شيء يجب أن يتبدل: مكان المدفأة، البشر، الأبواب، وحتى الطقس! وإذا أردت أن أفكر في العدالة المطلقة، يجب أن أستعين بذاك الفيلسوف.. الذي يجلس وحده يتأمل كل شيء بهدوء أسطوري.. ولكن من يبحث عن العدالة المطلقة أبله. وعلى الإنسانية المعاصرة

أن تتخلص منه بسرعة وبوسيلة فعالة!

إذن هزمت، لم أدفأ، ولكنها هزيمة صغيرة لا تستوجب التفكير. إن كل إنسان مهزوم بمعنىً معين، مع الحب، مع الإله، مع المال.. مع شيء ما. وحجم الهزائم يتفاوت من واحد لآخر، من وقت لآخر. لو كان الوقت صيفاً الآن لأصبح مكاني، في هذه الزاوية الرطبة حيث الريح تمر بحرية، مكاناً رائعاً.

أما الآن فإنه من أسوأ الأماكن.. والصيف! هل يأتي الصيف؟

آن لكم أن تشمتوا بأعلى أصواتكم، فقد قلت لكم أشياء تستحق أن تقال.. قلت لكم.. ولكن ماذا قلت فعلاً؟

أشعر بالتعب، والإنسان المتعب يمكن أن يهذي، يمكن أن يتكلم هاجر الكلام، بحسن نية، دون أن يعني شيئاً؛ خاصة إذا كان الإنسان مثلي..

معارك، هزائم، رجل بقبعة، وآخر بدون قبعة، وأخيراً أريد أن أمتلك الدنيا بثمن القهوة، هذا ما قلته لكم، وهاأنذا أقوله مرة أخرى، احتملوا مني ذلك، فأنا رجل متعب، ولكن لدي سر هائل، وكلمات هذا السر لا أستطيع أن أقولها إلا همساً، لئلا يسمع الآخرون.. إن ما أقوله لكم يعني إنقاذي، وإذا استمعتم إليّ جيداً تتحولون إلى منقذين، إلى قديسين، وبالتأكيد لن أنسى لكم هذا الجميل.

نعم أنا رجل متعب.. دخلت إلى المقهى في يوم بارد.

بهذه الكلمات يمكن اختصار كل ما كتبت!

ولكن مَنْ الذي دخل المقهى؟ هل دخله نابليون؟ كل الناس يدخلون إلى المقاهي، إن دخول المقاهي أمر طبيعي، يشبه أي شيء عادي في حياة الإنسان، ولا يستوجب هذا الكلام كله. مَنْ مِنَ الناس لم يدخل المقهى في حياته عشرات المرات؟ وحتى أولئك الذين لا تساعدهم ظروفهم، مثل الملوك، يدخلون المقاهي.. تصوروا ملكاً في إجازة خارج مملكته..ألا يذهب إلى المقهى؟ حتماً يذهب، هذا تصوري.. ولكم أن تتصوروا ما تشاؤون!

لا أعرف تماماً ماذا أردت أن أقول لكم.. المعذرة.. ولكني دخلت إلى المقهى فعلاً، وأنا لست ملكاً، أنا إنسان عادي، وإذا أردتم الصدق، فأنا أقل من إنسان عادي.. بقيت لأكثر من سنة، أتجول منذ الثامنة صباحاً، وعندما تبلغ الساعة الواحدة أتحوّل إلى كومة من التعب واليأس، وأحسّ أن الإفلاس الذي أعاني منه أصبح لعنة أبدية تطاردني، ولا يمكن مقاومتها!

في ذلك اليوم البارد إذن، وجدت نفسي أدخل إلى مقهى الأفراح.. ليس ذلك كل شيء، وإنما لم أجد مكاناً قريباً من المدفأة، فاضطررت لأن أجلس بعيداً، في زاوية رطبة وليست بعيدة عن المراحيض، وشربت قهوة، ودخنت عدداً من السجائر، وراقبت الناس كثيراً وباهتمام. وفكرت حتى تعبت!

لقد تعبت من كل شيء، من الركض وراء الوهم، من الريح الباردة، من ليالي الجوع، من فراغ الذاكرة. وكانت الساعة قد بلغت الثالثة، والريح الباردة تهبّ في ذلك الشتاء القاسي الطويل.. ولم أجد ملجأ لا تطاردني فيه الريح والأفكار السوداء.. سأدفع بعد قليل ثمن القهوة وأخرج من جديد إلى الريح. أشعر الآن بالسأم، وأحلم كثيراً، وأتمنى كأساً ولحماً.

أنا الآن أجلس في الزاوية الشرقية الباردة من مقهى الأفراح.. امتثلت لرأي صديقي وجئت إلى هنا، والكلمات الأخيرة التي تشكل دفاعي الوحيد يمكن أن أهمس بها في آذانكم:

قال لي: «اكتب عن حياة الناس في المقهى.. الناس الذين يقضون نصف أعمارهم وهم يسندون الجدران» ويمكن للكتابة أن تنقذك من الموت جوعاً ومن الانتحار.

لم أجد شيئاً محدداً أكتبه. وكنت مع ذلك مضطراً للكتابة، وهأنذا قد فشلت، ولكن فشلي بالتأكيد نتيجة التعب واليأس. ألا تتصورون ذلك؟

عندما قرأت هذا الهذيان، قلت كم يختزن الإنسان من تفاهات.. ليس أي إنسان. وإنما أنا بالذات، وتفاهتي لم تقف عند حدود أن أكون كذلك، وإنما أردت أن أطلع الناس أيضاً عليها.. ولكن قد يكون لي عذر عندكم بعد أن عرفتم.. كل شيء.

قدمت هذه القصة بغلاف مغلق إلى رئيس التحرير. . وبعد ثلاثة أيام دفعت لي الإدارة خمساً وعشرين ليرة وأرفقت بالمبلغ رسالة، قرأت فيها ما يلي:

. . .

تقدّر الإدارة الجهد الذي بذلته. . وتعجب لهذا العدد من الصفحات الذي كتبته دون معنى. ولكن واعتماداً على قصصك السابقة، التي تدل على الموهبة، وتقديراً للظروف الصعبة التي تعيشها ندفع إليك قيمة القصة التي أرسلتها. . دون أن نكون ملزمين بنشرها، راجين بذل الجهد في محاولات أكثر جدية، وملتزمة. . وتقبّل التحية والمودة.

وبعد ذلك توقيع رئيس التحرير.

خطاب العرش

شعبي العزيز.

من صميم الفؤاد نحيّيكم تحية الحب والوداد، تحية حارة مفعمة بكل مشاعر التبريك والعطف، سائلين المولى بنا اللطف!

وبعد.

فإننا نشكركم على احتفالاتكم الودودة الصادقة بمناسبة عيد جلوسنا الثالث والخمسين (تصفيق حار، هتافات: عاش ملك الملوك.. عاش، عاش) نشكركم مرة أخرى بصدق، ونقول لكم والتأثر العميق يملأ صدورنا، إن التفافكم حول عرشنا، وتعلقكم الشديد بشخصنا، في هذه الظروف العصيبة التي تمر بها البلاد، بعد الهزيمة التي لحقت بجيوش جلالة الملك في الحرب الأخيرة؛ إن هذا الحب الذي نلمسه في عيونكم، والمودة التي تملأ قلوبكم، دفعتنا إلى اتخاذ بعض الإجراءات المفيدة للشعب؛ وإننا بُعيد جلوسنا هذا نزفّ إليكم البشرى التالية، والتي أَمَرْنَا رئيس وزرائنا أن ينفذها فور إلقائنا لهذا الخطاب التاريخي.

(هتافات: عاش الأب الرحيم المحسن، يسقط الجلاد، نريد الاستقلال، الموت الزؤام للقمان آغا ومساعده)

البشرى يا شعبي العزيز:

بعد أن فكر المليك طويلاً، وقدر ماضي الأمة ومستقبلها، اتكل على المولى العزيز، وقرر ما هو آت:

أولاً: يلغى الرق في جميع أرجاء المملكة، ابتداءً من هذه الثانية، ويعتبر جميع رعايانا أحراراً طلقاء.

ثانياً: على جميع الأرقاء أن يكفوا نهائياً عن أن يكونوا رقيقاً.. إلا لله مالك كل شيء.

ثالثاً: على كل مالك رقيق أن يعتق رقيقه ولو بحبة قمح.

(تصفيق طويل.. وصراخ.. وهتافات: عاش أبو الفقراء.. لا عبودية في ظل الملك المفدى.. ولا حرية الرعاع.. الموت للجلادين سارقي قوت الجماهير.. نريد الملابس ورأس لقمان آغا وأنور أفندي)

شعبي العزيز جداً.

إننا نقدر مشاعركم وحسن إدراككم، ونود أن نصارحكم أننا بذلنا خلال الثلاث والخمسين سنة الماضية، كل ما في وسعنا من أجل خدمتكم وتأمين أرواحكم ورزقكم، لقد بذلنا جهوداً لا يستطيعها بشر، وسوف نظل نبذلها إلى يوم الحشر: كل ذلك بطيب خاطر، وبدوافع إنسانية نبيلة ولغايات بعيدة النظر عميقة الأثر، لنجعل من المملكة قلعة للإخاء وملاذاً

للفقراء ومثلاً تقتدي به الأمم، صغيرها وكبيرها، قريبها وبعيدها، نقول هذا ونفوسنا تفيض بالخير والبركة ومطامحنا تتزايد من أجل أن يمد الله بعمرنا ويرفع من قدرنا حتى نقدم الخدمات ونكثر الجهود والصدقات لجماهير الأمة في السنوات القادمات.

(هتافات: نريد الخبز، نريد النوم، عاش الملك، عاش الملوك، يسقط أنور ابن عم النخلة وسارق الزبيب.)

شعبي العزيز،

درجت العادة في مملكتنا المزدهرة، أن نتقدم في عيد جلوسنا ببرنامج الحكومة الموقرة الرشيدة التي كلفناها بإرادة سامية من الدرجة الأولى، لتسيير دفة الأمور في البلاد خلال المرحلة القادمة، وأعطينا لرئيس وزرائنا المفخم جداً توجيهات سنيّة، وطلبنا إليه، أو بالأرجح أمرناه، القيام بما يلي:

(هتافات: نطلب السكوت. عاش.. عاش الملك، يسقط الجلاد الطاغية. إلى الثورة.. إلى الثورة)

شعبي العزيز جداً.

لقد قلنا لكم في عيد جلوسنا الثلاثين.. الخامس والثلاثين.. وربما الأربعين، أن حكومتنا تحتاج إلى الوقت والهدوء، من أجل إنجاز مشاريع الإعمار في جميع أرجاء البلاد، وهذا القول الذي قلناه قبل أربعين عاماً ما زال صحيحاً جداً، وساري المفعول أيضاً، وقد أمرنا رئيس وزرائنا المفخم

جداً، كما ذكرنا، أن يؤكد على ذلك في مرسوم جديد، حددناه قبل عيد الفطر المبارك، أعاده الله علينا وعليكم وعلى سائر المسلمين بالخير واليمن والبركة.. اللهم آمين.. وبعد

(هتافات: اسرقوا قوت الشعب يا قتلة، عاش.. عاش الملك أبو الأيتام.. اقتلوا لقمان.. اقتلوه..)

ذكرنا لكم في بداية خطابنا التاريخي السابق أن مملكتنا لا تعاني، ولله الحمد مثل البلاد المجاورة، وحتى غير المجاورة، من المصائب والآلام؛ أما بخصوص انقطاع المطر، فقد قمنا بصلاة الاستسقاء يوم الجمعة الفائت، ولا شك أنكم رأيتم جلالة مليككم المفدى، والجموع تلتف من حوله، وتحمله على الأعناق، واللوم في ذلك يقع على وزير الإفتاء، فضيلة الشيخ زهدي آغا، الذي كان غبياً جداً، ولم يختر الوقت المناسب للصلاة، حيث قمنا بها في يوم مشمس حار.. أثر على صحتنا، بينما كان يجب أن نقوم بصلاة الاستسقاء في يوم آخر، يوم غائم مثلاً.. لقد عاقبنا هذا الغبي، وزير الإفتاء بالطرد المؤبد والإهانة، وحرمناه من مقابلتنا، أو الصلاة في الجامع الكبير، كما منعناه من المرور في الشوارع الرئيسية، حتى الميدان، أثناء النهار، وسوف نعاقب كل وزير يسيء إلى الشعب؛ إن الشعب أمانة في أعناقنا، ونحن عندما أشهدنا الله يوم وفاة والدنا المغفور له، قلنا والدموع تتساقط من مآقينا والألم يحز في نفوسنا، إننا سنخدم هذا الشعب إلى أبد الآبدين، تقرّباً لله، لا نريد حمداً

ولا شكوراً، وما زلنا عند الوصية التي وعدنا بصدق وإخلاص وتفانٍ منقطع النظير أن ننفذها بإحكام والشاهد علينا في ذلك رب الأنام، ولكن المصائب التي تلحق بالأمم يجب أن تتحملها، لأنه سبحانه وتعالى يمتحن الصالحين ليعرف الصادقين من المنافقين.

(هتافات: نريد الصمت والخبز والحرية ونهاية الدنيا.. عاش.. عاش)

أما بخصوص الهزيمة العسكرية التي حلّت بنا، وأدخلت الحزن إلى قلوبنا، فبعد أن تعمقنا في التفكير وسألنا المنجمين وذوي الرأي والتدبير، انتهينا إلى نتيجة وهي أن للأمم دورات، دورات انحطاط وأخرى صعود، ومن الطبيعي أن لا يستطيع جلالة الملك شرح النظريات المعقدة للجماهير، ولكن كلفنا رئيس وزرائنا أن يطلب من أئمة المساجد وأصحاب المقاهي والحلاقين توضيح ذلك للأنام، وأمرنا أن تخصص ساعة كل ليلة، بعد صلاة العشاء فوراً، من أجل شرح النظريات الحديثة للأئمة، وأكدنا ذلك بتكليف ملكي سام، صدر عن بلاطنا العامر، وقلنا فيه إن جلالة الملك المفدى سيقوم بزيارة بعض المساجد زيارات مفاجئة، بل سيداهمها، ليتأكد بنفسه من حسن تنفيذ الأمر.. إن الأوامر الملكية يجب أن تنفذ بدقة صارمة.

يا شعبي العزيز..

أبلغكم أيها الأخوة الأعزاء إلى قلبي، أن التكليف الملكي

المشار إليه أعلاه تضمن أن يقوم الرجال بنقل ما يسمعون إلى الزوجات والأمهات، كما أكدنا أن على الرجال نقل هذه الأفكار الثمينة، إلى العجزة والمقعدين ومشوهي الحرب، وكل من لا يستطيع الحضور إلى الجوامع لأداء فريضة العشاء، مع أن أداء هذه الفريضة في الجوامع ضرورة كبرى، كما أوصى والدنا المغفور له الملك الراحل.

شعبي العزيز..

نشكركم على حسن انتباهكم، والآن نبدأ بعرض الأمور الهامة التالية:

أولاً: يجب أن يعمّ الخير جميع أرجاء البلاد، وعلى وزرائنا أن يشمّروا عن سواعد الجد والنشاط ويقوموا بالأعمال التالية:

1 - البدء بالعمل فوراً، أي بعد انتهاء خطاب العرش السامي، مباشرة.

2 - يلزم بتنفيذ هذا الأمر الملكي كل من له اختصاص.

3 - صدر عن بلاطنا العامر في السابع من صفر الموافق التاسع عشر من شباط.

ثانياً: المشروعات تنفذ حسب ضمير الوزراء، وعليهم أن يبلغوا رئيس الوزراء الخطوات التنفيذية، وعلى رئيس وزرائنا أن يرفع إلى مقامنا ما يلي:

1 - كمية الأمطار التي سقطت حتى هذا التاريخ.

2 - كمية الأمطار التي يجب أن تسقط حتى تاريخ عيد جلوسنا القادم.

3 - حاجة البلاد من الخضروات والقمح والزبيب والزيت لنقوم باستيرادها، من الدول المجاورة، قبل أن يحلّ فصل الصيف اللعين المشؤوم، حيث تذهب الثيران إلى البيادر وتذهب الشعوب المجاورة إلى الدول الأخرى للعمل والتسلية.

4 - سؤال المنجمين والفلكيين بالمملكة، والاستعانة بأمثالهم في الخارج، إن كانت هزائم جديدة ستلحق بجيوش جلالته لكي تتوقف هذه الجيوش عن التدريب، ولكي نبلغ الأرامل والأيتام بالاستعداد.

5 - على كل مواطن يأتيه ولد ذكر أن يقوم بإبلاغ البلاط بتاريخ الولادة واسم المولود والقابلة التي استولدته، وكل مواطن يتأخر أو يهمل أو يفكر في التهرب من هذا الواجب الوطني الهام جداً، يعرّض نفسه لأشد أنواع الإساءة والإهانة والتشهير ويُمنع منعاً باتاً من ركوب الخيل الأصيلة ومن الجلوس في المقاهي.

ثالثاً: الخدمات العامة:

على رئيس وزرائنا، المكلف من قبلنا، القيام بوضع شارات على جميع الشوارع والبيوت، وكل شارع يجب أن يحمل اسماً جيداً وجميلاً، وكل بيت يجب أن يحمل رقماً وعلامة إلى جانب الرقم، صورة أرنب مثلاً، وعلى رئيس الوزراء أن ينفذ ذلك خلال بضع ساعات من التاريخ أدناه.

1 - التأكد من وقت إغلاق المحلات التجارية والأفران والحلاقين وعدم النوم في الجوامع ووقف الإساءة إلى البغايا اللواتي يدفعن الضرائب.

2 - الإشراف على سوق الجمعة إشرافاً حازماً وكذلك محلات بيع الخردوات والملابس القديمة والداخلية ومراقبة مركّبي الأسنان وبائعي اليانصيب والسماسرة، لكثرة الغش والتلاعب الحاصل منهم.

إن مخالفة الأوامر واللوائح والتنظيمات والبلاغات والمراسيم والقوانين وملاحق القوانين والاجتهادات والتفسيرات الصادرة عن أي جهة في المملكة تعرّض مخالفها للغرامة وربما للسجن إضافة إلى الإساءة المباشرة، أيها يرى كبير القضاة أنها في مصلحة المملكة، وعلى القضاة أن يبلغوا كبيرهم بذلك، وأي إهمال من قبلهم يعرّضهم للحرمان من الزواج والجلوس في مقاهي الميدان والمرور أمام البوابة الكبيرة.

(هتافات قصيرة متعبة.. عاش.. عاش.. اهربوا.. الموت لكل الخنازير وسارقي قوت الشعب.. لقمان.. لقمان)

شعبي العزيز.. بل العزيز جداً..

ما زال أمامنا الكثير.. إن الوصية التي أوصانا بها المرحوم المغفور له والدنا، المليك الراحل موضوعة فوق عرشنا، نقرأها صبحاً مساء، ونتذكر كل كلمة فاه بها الفقيد الغالي، ونحاول أن نتصور الكلمات التي قالها منذ كان شاباً في ريعان

الصبا، وقد عاهدنا الله عزّ وجلّ أن نكون مخلصين لهذا الشعب، إننا من الشعب، نخدم الشعب ونموت في سبيل الشعب، وسوف تبرهن السنوات القادمة أننا ما زلنا عند حسن ظن الشعب وسنقدّم للشعب الخيرات العميمة والبركات الوفيرة، وتأكيداً لأفكارنا، وتحقيقاً لأقوالنا، فقد قررنا أن نقوم، مرة أخرى، بصلاة الاستسقاء، ولكن سنختار اليوم بأنفسنا، بعد التفكير والتبريد وسؤال الصغير والكبير، ليهب الله من عونه، لهذه الأمة القمح والشعير. إن الله يعطي الملك لمن يشاء، ويعز من يشاء. وهو على كل شيء قدير.. صدق الله العظيم.

شعبي العزيز..

بعد هذه المقدمة السريعة، نبدأ الآن باستعراض أعمال الوزارة خلال السنوات العشر المنصرمة، ثم نستعرض الأعمال للسنوات العشر التي تطل علينا مثل هلال العيد.. وبعد ذلك نقدم البرنامج الوزاري، وبعده نقدم توصيات ملكية سامية، من أجل أن تبقى المملكة دائمة الازدهار، ومحط الأبصار، وملكها من طويلي الأعمار.

شعبي العزيز جداً..

أعمال السنوات العشر المنصرمة:

ما كاد جلالته يبدأ بتلاوة ورقة جديدة، حتى تلقّت رقبته صفعة قوية، فوقع عن الكرسي الصغير الذي يقف عليه، وتناثرت الأوراق حوله، وكان القاووش قد خلا نهائياً، ما عدا

ذبابة كبيرة خضراء كانت تحوم حول جثة رجل أجريت له عملية، بينما كان الملك يتلو خطاب العرش..

وبدأ ممرض المصح يلاحق الملك يريد أن يقبض عليه، والملك يركض أمامه بهلع ويصرخ:

شعبي.. شعبي العزيز.. شعبي المهزوم.. أين أنت؟

كان الملك قد تأخر كثيراً ذلك اليوم عن القيام بواجبه في التنظيف...

المنكود

إلى علي الاصفري ابن الحلبية
المنكود أيضاً

من الكلمات التي تذكرها أختي الكبيرة، وترددها على مسامعنا كلما زارنا خالي، أن أمي وهي تموت قالت لمن كانوا حولها، «لا تنسوا المنكود» وقد فهم الحاضرون من تعني، ولم يسألوها توضيحاً، لأنها كثيراً ما كانت تشير إليه بهذا الوصف، حتى غلب عليه هذا الاسم أكثر من أي اسم آخر.

ظلت الأوصاف التي تُطلق على خالي تثير فينا الاستغراب والتساؤل، لماذا يكون خالي منكوداً؟ أو لماذا يكون أي وصف آخر من تلك الأوصاف التي تطلق عليه؟ ثم جاءت مجموعة أخرى من الأوصاف الجديدة على لسان خالتي وغيرها من النساء، لتزيد الأمر غموضاً؛ كان يقال عنه العاثر الحظ، الضائع. وتجرأت إحدى النسوة مرة ووصفته بالمهبول، ثم رفعت يدها إلى السماء وطلبت من الله أن يهديه أو يخفيه؛ ولم نستطع أن نجد تفسيراً لهذه الأوصاف التي يتداولها الكبار، والتي لم تكن لتطلق على أحد غيره.

كان اسم خالي يضيع، ويحل محله في كل مرة يزورنا

وصف جديد أكثر إثارة من الأوصاف السابقة، حتى سماه أبي في آخر مرة الوحش، ولكن عاثر الحظ أو المنكود ظلت أكثر الأوصاف ثباتاً وتداولاً. والقصص التي تروى عنه كانت تنتهي أغلب الأحيان بسرعة حين يكون غائباً، حتى أن خالتي ظلت تحرص على أن تقطع كل حديث عنه، لأنها تعتقد أن مجرد ذكره لابد أن يحمله إلينا، وفي مرة سمعتها تقول بصوت عالٍ لمجموعة من النساء كن يتحدثن عنه «لنتركه، يجب ألا نتحدث عنه... وإلا تحقق المثل الذي يقول «إذا ذُكر الذئب حضّر العصا»».

كان خالي مثل باقي الرجال، لا تميزه غير لحيته الصغيرة الرمادية وعينيه المتعبتين؛ لم يكن طويلاً، وهو أقرب إلى النحافة؛ كما يتميز بقدميه فهما كبيرتان وتعلوهما طبقة سميكة من الجلد الميت، وهاتان القدمان بقدر ما كانتا تثيران النقد والاستياء لدى خالتي كانتا تثيران فينا الدهشة الممزوجة بالإعجاب، وتخلقان في أذهاننا صوراً لا تنتهي عن المسافات التي قطعها والأماكن التي شاهدها.

تقول خالتي إنها شاهدت عقرباً ينام في باطن قدمه. وينظر خالي إلى قدميه ويبتسم، وبطرف عينه يغمز لنا مع هزة رأس تنفي هذه القصة.

كان خالي إذن رجلاً مثل باقي الرجال. ولم أكن أدري لم يطلقون عليه هذه الأوصاف ولمَ يضيقون به؛ لم يكن يزعج أحداً، ولا يتكلم إلا نادراً. وكثيراً ما كان يضيق بمجلس أبي

والرجال الذين حوله، فإذا وجد فرصة انزلق بهدوء دون أن يحس به أحد، وانزوى في مكان بعيد، متمدداً على الأرض يعبث بطرف جلد الخروف الذي ينام عليه، ويدندن بأغنيات بدوية لم نكن نفهمها.

كنا عندما نراه في مثل هذا الوضع نلتمس وسيلة لنصل إليه. كنا نحمل له أكلاً أو وسادة. فإذا كان قد هيأ فراشه وأكل، فلا أقل من الماء نحمله إليه سواء كان يريده أم لا.

وفي الظلمة المشربة بنور الغرف البعيدة، وأحاديث الرجال تصلنا مثل طنين غير واضح، كان خالي يحدثنا عن أسفاره والمصاعب التي واجهها، وعن أيام البرد القاسية في الصحراء. كنا ننظر إليه وقد امتلأنا إعجاباً بهذه القوة التي تجعله فوق مستوى الرجال الآخرين، ونتساءل كيف استطاع أن يبقى دون ماء فترات طويلة، وكيف أنه وضع الحصى في فمه ليتغلب على العطش.

وكنا نتساءل لماذا لا يوجد في الصحارى ماء. ونتيه في تصور أماكن بعيدة مخيفة لا يمكن للإنسان العادي أن يجتازها. أما هذا الرجل البسيط الذي يجلس معنا فقد اجتاز كل شيء؛ وهو الآن يتحدث وكأنه يقرأ في كتاب.

وكنا مستغربين لِمَ لا يتحدث عن هذه المغامرات إلى الكبار؛ ونتعجب أكثر لأن الكبار لا يسألونه عنها؛ إن شيئاً من هذا لو حصل لأصبح وضع خالي معهم مختلفاً تماماً، فلن يجرؤوا على أن يصفوه «بالمهبول» أو أي وصف آخر من هذه

الأوصاف القبيحة، وسيمتلئون دهشة ورعباً. وسيرون أنفسهم ضعفاء لا يقدرون على شيء.

كانت الأسئلة تدور في رؤوسنا الصغيرة، ولم نكن نجد لها جواباً، ثم تضيع في زحمة الضحكات الساخرة والكلمات التي تنهال عليه مثل المطر:

- متى تسافر؟

- مغرّب أو مشرق؟

- لا تتعب نفسك يا منكود... أنت لا تصلح لشيء. انقبر في أرضك أفضل لك!

- متى تأتي مرة أخرى يا مهبول؟

- حرام عليك أن تعذّب الناقة بسفرات تائهة مجنونة!

- ولكنه سيعود غنياً هذه المرة. لولا أن «الحُر» مات قبل خمس سنوات لاستطاع أن يصل بحمل التمر إلى الجوف، وأن يحصل على ثمن كبير، ولكن البعير رأى حظ إبراهيم العاثر وفضل أن يموت!

ويضحك الرجال. ومن وراء الخصاص تتابع النسوة المشاهد وقد اشتعلن حماسة وأخذن يضحكن ضحكات مكتومة أقرب ما تكون إلى المواء أو البكاء المتقطع. والخال ينظر إلى الرجال وابتسامة حزينة تملأ وجهه، لا يجيب. فإذا ألحوا عليه يسألونه أين يريد أن يسافر، كان يقول:

- أرض الله واسعة، وعلى الرجال أن يسافروا، أن يتعبوا

ويشقوا. . أما الرزق فمن عند الله. وهذه المدينة التي تقضون فيها عمركم لا أشتريها «ببارة».

ويسأله أحدهم:

- ولكن إلى أين هذه المرة؟

وتمر فترة من التوتر والصمت؛ يريدون أن يعرفوا وجهته. وينظر إليهم ولا يجيب، ثم بنوع من نفاد الصبر يشير بيده نحو الشرق.

- ماذا لو تأخذ معك تمراً إلى العراق؟

- ولكنهم يأتون بالتمر من العراق!

- حتى تخسر!

ويطلقون ضحكات عالية تهتز لها أعطافهم وتدمع أعينهم.

ظلت هذه المشاهد تتكرر باختلاف يسير. وظل الرجال ينظرون إلى الخال هذه النظرة المشوبة بالسخرية والرثاء. أما هو فلم يتغير موقفه منهم. كان ينظر إليهم ببرود، وابتسامة حزينة تملأ وجهه. أما عيناه المتعبتان فقد كانتا تحدقان في نقطة أبعد من وجوه الرجال وأبعد من القامات التي يراها أمامه. كان يفكر في أماكن بعيدة وأناس آخرين. وترتسم على وجهه ظلال الأفكار والأماكن التي يراها، فيستجيب لها بلذة حالمة تلمسها بانفراج الخطوط الثقيلة التي تملأ جبهته، أو بيده الخشنة تمتد إلى اللحية الرمادية تعبث بها، ولكن ضجة الرجال ونظراتهم لا تلبث أن تعيده؛ فتراه يهز رأسه بعصبية وكأن

كابوساً أيقظه من نوم عميق، يفتح عينيه على آخرهما وينظر إلى الوجوه وكأنه يراها لأول مرة، ويحاول بتكلف ظاهر أن يعيد ارتباطه بما حوله، ولكنه لا يلبث أن يترك الحلقة التي تضيق عليه في أول فرصة تلوح له ليخرج إلى الهواء.

* * *

جاء خالي مرة، بعد انقطاع دام أكثر من سنتين، وقد بدا هذه المرة عصبياً مهموماً، لا يريد أن يكلم أحداً حتى نحن الصغار. أما الأسئلة التي توجه إليه فلا يجيب عليها إلا مضطراً.

كان يقضي جزءاً كبيراً من وقته نائماً تحت عريشة العنب، ينام في النهار لفترات طويلة، ورغم حرارة الجو، (إذ كنا في أوائل الخريف) ينام متدثراً بفروة من جلد الخروف، ويضع عصاه الطويلة قريبة من رأسه. وعندما تخنقه الحرارة، أو عندما نوقظه لكي يأكل، يهبّ عصبياً مرعوباً، وحبات العرق الغزير تتساقط من جبهته على لحيته ورقبته.

في ظهيرة يوم من تلك الأيام اغتنم فرصة وجود أبي وحيداً ودخل عليه، وبهدوء أغلق الباب وراءه. يقول أبي: دخل عليّ إبراهيم بحذر، كانت عيناه تبرقان بريقاً لم أعهده في هاتين العينين المطفأتين. وكان وجهه أصفر يميل إلى الزرقة الحائلة، وأطرافه ترتجف. ما كاد يدخل ويغلق الباب حتى توجست خوفاً، فاضطرب قلبي وظننت أن شراً وشيكاً لا بد أن يقع.

نظر إليّ إبراهيم نظرات حائرة غامضة، ثم حاول الابتسام، فبدت ابتسامته أقرب إلى البكاء، إذ ارتخت عضلات فمه، وتدلّت شفته السفلى، ثم لم يلبث أن عدل فجأة عن الابتسام وكأن أفكاراً غاضبة مرّت في رأسه أو تذكّر أمراً محزناً. بدت لي اللحظات طويلة وقاسية، بين إغلاق الباب والكلمات التي سمعتها تخرج أخيراً من فمه، حتى لكأنها تأتي من مكان بعيد أو من عالم آخر. قال:

- هذه آخر مرة يا حاج أطلب منك مالاً. . . . أريد ثمن جمل ولن ترى وجهي بعد اليوم.

- ولكن أين الناقة التي جئت بها آخر مرة؟

- لقد بعتها واشتريت بدلاً منها سبع رؤوس من الغنم.

- وأين الغنم؟

حينذاك امتلأ وجه الخال بالحيرة، فقست عيناه وضاقتا، وامتدت شفته السفلى والتي تشبه قطعة الجلد اليابس، كان واضحاً أنه يصارع أفكاراً تزحم رأسه، ولكن في لحظة قرر أن يجيب:

- راحت الغنم. . . يا حاج.

- ولكن كيف راحت؟ هل ماتت؟

ويمضي أبي فيقول: عندما اتضح لي الموقف عادت لي شجاعتي، وقلت في نفسي إن الفرصة قد حانت، إذ أستطيع الآن أن أملي شروطي على الخال، وأن أثبت له أن الكلام

الذي حاولت إقناعه به أكثر من مرة، لم يعد هناك حاجة لأن أردده عليه من جديد. لقد اقتنع إبراهيم ولن يردد كلاماً سخيفاً طالما ردده في المرات السابقة.

كان يقول لي في كل مرة حاولت أن أقنعه بترك الحياة التي يعيشها: أستغرب كيف يستطيع الإنسان الجلوس على كرسي من القش، في دكان رطبة لا تزورها الشمس طوال النهار، وكأنه مربوط بين أكياس السكر والرز.. إنه إذا ظل هكذا فترة من الزمن فلا بد أن يتحول إلى جزء من الأشياء تشبه الحجر. وإن حياة الجرذان أفضل ألف مرة. ويصمت طويلاً، ثم ينهي حديثه: يجب أن يعيش الإنسان في الشمس، في العراء، والماء الصافي والمطر، ورائحة العشب والصحراء، والخيل والغنم والجمال.

هذه المرة لم يقل شيئاً.

- راحت يا حاج وانتهى أمرها.

- لا أعطيك ثمن البعير إلا إذا عرفت كيف راحت الغنم؟

وقرر الخال أن يتكلم، تردد أول الأمر، ثم قال:

كنت في أرض الرقة هذا الربيع، وتعرفت إلى عرب يتاجرون بالغنم، وبعد فترة قضيتها عندهم، همسوا بأذني أن أتزوج من امرأة يعرفونها وتعيش بطرف الرقة، وبعد تفكير طويل وحساب لما يتطلبه الزواج من مال، قررت أن أبيع الناقة وأشتري بدلاً منها بضعة رؤوس من الغنم، لأن الغنم تعطي

الحليب والصوف، ويمكن أن يبقى بعض المال. . وهذا ما فعلته، فقد بعت واشتريت، وصار حديث في الزواج، وبعد أن دفعت مالاً وكدنا نستمر في الأمر إلى نهايته، إذا بها تشترط عليّ أن أقيم في المدينة، في بيت من الطين، وأن أقيم بصورة دائمة، وقالت إنها لا ترحل ولا تريد لي أن أرحل، وقد أفهمت الوسطاء أن قبول مثل هذه الشروط مستحيل. وبعد أن تعبت في محاولتي تركت كل شيء ورحلت. هكذا راحت الغنم يا حاج! وتنهد بحرقة.

ويضيف أبي: كنت أتصور أني وصلت، فالخوف الذي لمسته في وجه الخال، وتردده في الحديث، ثم توسلاته أن أعطيه مالاً ليشتري بعيراً أو أشتريه له بمعرفتي، جعلني في مركز لا أعرف كيف أصفه لأقنع الخال للمرة الأخيرة. ولكن بعد أن سمعت قصة الغنم تشاءمت، ولم أعرف كيف أتصرف، فالرجل ما يزال يعاند، لا يريد أن يستقر في المدينة، ولا يريد أن يرتبط بشيء، وما يزال يفضل أن يتيه في البوادي من مكان لآخر؛ كان بإمكاني أن أرفض إعطاءه المال، ولكن رفضي لن يغير في الأمر شيئاً. وإذا أعطيته فمثل كل المرات السابقة سيشتري بعيراً. يتشرد معه سنة أو سنتين، جائعاً، ضائعاً بلا هدف، ثم يأتي مرة أخرى، قد يأتي ببعير باعه واشتراه عدة مرات، وقد يأتي دون شيء. وتتكرر الطلبات نفسها.

«قررت أن أعطيه. ولكن كنت أريد أن أعذبه، ولا أقول أن أحاول معه، فقد وصلت بعد تفكير، إلى أن المحاولات

معه لن تفيد شيئاً، عرضت عليه أن أعطيه مبلغاً أكثر مما طلب شريطة أن يفتح دكاناً ويستقر، عرضت عليه أن أشتري له تجارة يذهب بها مع آخرين إلى العراق، فإذا عاد منها دون أن يهج مرة أخرى، أعطيته تجارة يتصرف بها بنفسه، عرضت عليه ذلك كله، ولكنه بدا بعيداً أكثر من كل مرة، كان ذاهلاً لا يسمع كلماتي، ولم يتفوه إلا بكلمات قليلة، ولكنها كانت واضحة وحازمة. قال لي:

- أتتذكر يا حاج المرأة الحلبية؟ لقد تزوجتْ مرة أخرى بعد أن تأكد لها أنه يستحيل عليَّ البقاء في المدينة، لقد تنازلتُ لها عن الولد، وقلت لها إني لن أطالب به في يوم من الأيام. وهذه بنت الرقة قبل أن تكمل شروطها رَحَلْتُ دون أن أقول كلمة واحدة. أما التجارة فأنا لا أعرف من أمرها شيئاً. وصمت قليلاً ثم قال: يا حاج أعطني ثمن بعير والله يخلف عليك. ولن ترى وجهي مرة أخرى.

كانت ملامح الخال متوسلة خائفة، واجتاحه شعور قوي أني لن أعطيه هذه المرة، خاصة بعد أن عرفت كيف راحت الغنم».

يضيف أبي وقد امتلأ نشوة وهو يروي القصة:

«كنت أريد أن أعرف كيف تخلى عن الغنم بهذه السهولة، سألته:

- هل عقدت عليها يا خال؟

- لم أعقد عليها، ولكن الموافقة تمّت. وكادت الأمور تنتهي، لولا ذلك الشرط!

- كان يجب أن تسترد الغنم، لأنها لم تصبح زوجتك.

- ولكني خجلت يا حاج. بعد أن اختلطت غنمي بغنم أهلها.

- هذا حقك. أما إذا خدعوك فهذا أمر آخر.

- لم يخدعوني. لقد تركت كل شيء، وسافرت دون أن يحس بي أحد».

ويختم أبي كلامه فيقول: «أعطيته المبلغ بعد مساومة طويلة. واشترى الناقة!»

* * *

ما زلت أتذكر تلك الناقة التي يتحدث عنها أبي. كانت فرحة الخال كبيرة، كان يربط الناقة قريباً من المكان الذي ينام فيه، ثم يبدأ يتحدث إليها ويمسح بيده على ظهرها، ويغني لها بعض الأحيان، وفكر أن يعطيها اسماً، ولكنه تردد في اللحظة الأخيرة، وقال إنه لن يفعل ذلك قبل أن يجربها في سفر طويل.

بعد أيام كنا ننوي زيارة إحدى خالاتي في قرية تبعد قليلاً عن المدينة. وقرّر الخال أن يشاركنا الرحلة، فاستيقظ مبكراً وهيأ الناقة، وانطلق قبل رحيلنا بأكثر من ساعتين، وما كدنا نصل مشارف القرية التي تسكن فيها خالتي، حتى التقينا الخال

يخب على الناقة، وكأنه يركب سفينة، وظل يشير إلى سيارتنا حتى ابتعدت.

لقد بقيت تلك الزيارة محفورة في ذاكرتي. والآن كلما مرّت صورة الخال أتذكر الوجه الفرح، والغناء، وأشياء أخرى قد لا تخطر ببال:

ففي الليلة التي قضيناها عند خالتي، وبعد أن ربط الخال ناقته في ساحة الدار، سهر معنا طويلاً وتحدّث كما لم يفعل من قبل.

تحدّث عن المدينة والنساء والمال والسفر، وتحدث عن الجمال، ورغم أن حديثه عن بعض الأمور كان غامضاً فقد بدا كل شيء تلك الليلة أخاذاً، له بريق حاد.

قال لنا بعد أن تزوج، لم يستطع الإقامة في المدينة أكثر من ستة أشهر، تصور المدينة بعدها مثل غول يطبق على صدره ويكاد يخنقه، فعافت نفسه الأكل وتحول إلى حيوان كاسر، وخاف أن يؤذي زوجته فاقترح عليها السفر، وكاد يقترح عليها الإقامة في مكان آخر، ولكن رفضها وعنادها أرغماه على أن يتركها. ولما عاد إليها بعد سنتين وجد لديها ولداً منه، وفكر أن يقيم في المدينة من جديد، ولكنه لم يطق، وبعد تفكير طويل، تخللته متاعب ومشاحنات، طلقها وترك لها الطفل.

تحدّث الخال عن أشياء أخرى، قال إنه لا يحب المال ولا يعرف ماذا يصنع به، كما لا يريد بيوتاً ولا زراعة، وأنه يعتبر التجارة سرقة مكشوفة. أما السفر فإنه وحده حرية

الإنسان، وكل ما عداه وهم! وظلت كلمة السفر تتردد في أذهاننا كأقوى نبرة تلتقطها آذاننا، ونتيه وراءها في خيالات بعيدة!

سهرنا طويلاً تلك الليلة، ثم صعد الخال لينام على سطح الدار، بعد أن ربط رجله برسن الناقة، وظل صوته يصل إلينا هادئاً حزيناً، وحداؤه يذكّر بحنين غامض، ولم يهدأ ولم ينقطع صوته إلا بعد أن نهرته خالتي وهددته أكثر من مرة، ثم شتمته.. وأخيراً اضطر أن ينام، أو هكذا بدا لنا.

في الصباح استيقظنا على أصوات غير طبيعية، أصوات غامضة ملفوفة بأسئلة قصيرة وإجابات تمتزج فيها الصرخات باللعنات والبكاء.

لقد سقط الخال عن سطح الدار. ومات.

في الغرفة التي مُدِّد فيها كان وجهه مزرقاً والدماء يابسة على خدّه ولحيته، وشفتاه منتفختين وأقرب إلى السواد.

بعد شهرين كان قبر الخال يُنبش من جديد، وتُخرج جثته لتشرَّح؛ فقد وصلت إلى السلطة معلومات تقول إن الخال مات مسموماً...

عندها بدأت بعض الكلمات تأخذ معنى محدداً في ذهني. لقد فهمت تماماً معنى كلمة منكود... وعاثر الحظ.

عَرَق... ونشرة أخبار

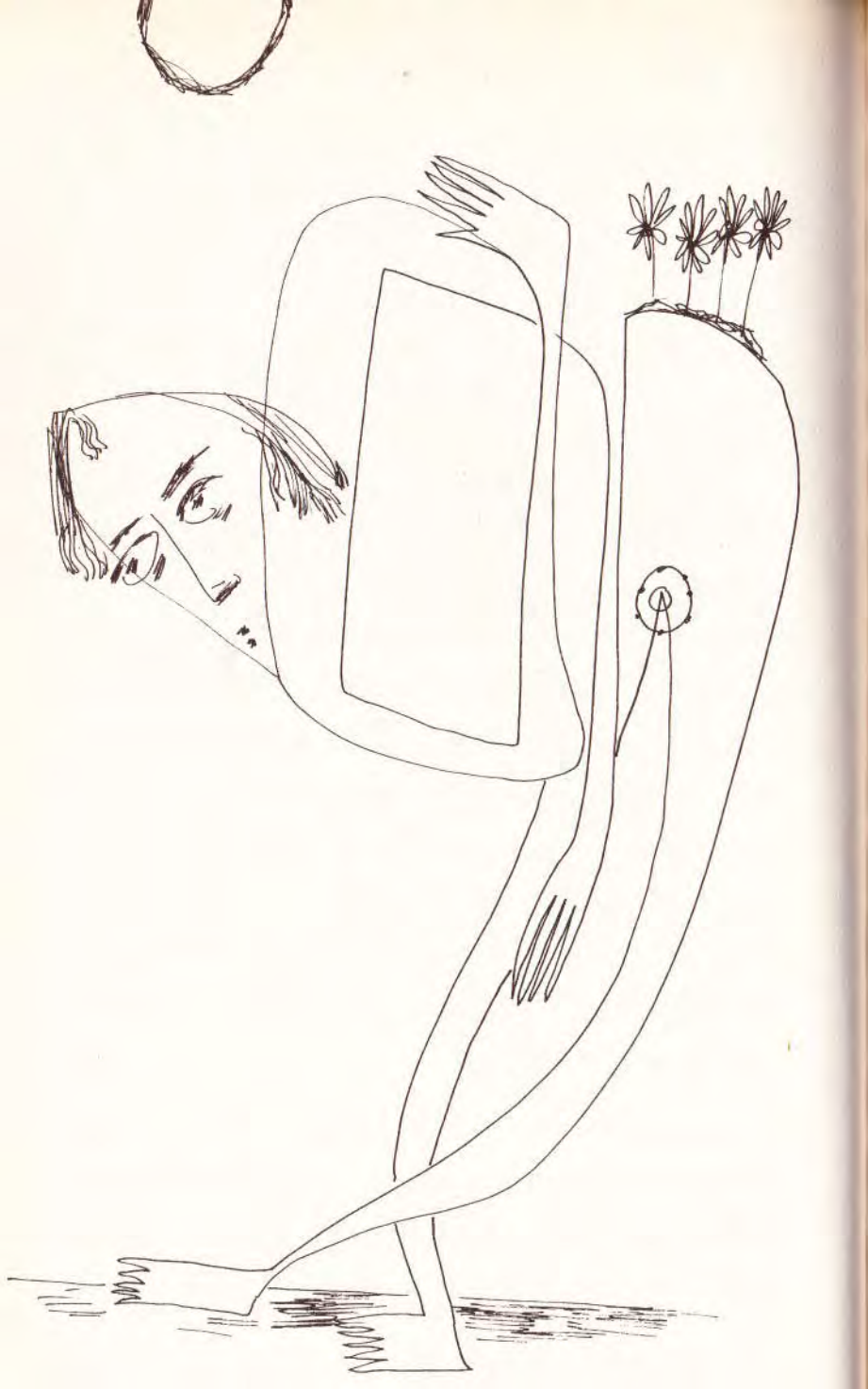

أقسم بالله وبكل المقدسات إن كل شيء باطل. «الحق.. الحق أقول لكم، كل شيء باطل، باطل الأباطيل، قبض ريح وحصاد هشيم». روحي تحولت إلى هشيم، لا ترتبط بالأرض، لا ترتبط بالسماء، لا ترتبط بشيء، كل شيء باطل، وأقاوم، أريد أن أخترق الصخر. أن أقفز في الهواء، ولكن كل شيء يشدني إلى الأرض، الأرض! أي أرض؟ فيروز تعلمنا حب الأرض، وأدوخ في حب الأرض، أمرض أموت، يتحول قلبي إلى حبل ليف، متطاول بلا انتهاء، يريد أن يربط بين الناس والأرض، ولكن لا شيء يمكن أن يربط. فلات من أول الدنيا إلى آخرها، صوت فيروز يملأ القلب، تغني الآن «سأرجع يوماً إلى حيّنا».

أي حي؟ لقد مات الجميع، كل شيء ساكن، لم يبق إلا أن أتوسد حجراً وأغلق فمي مثل أفعى وأموت «حرام أن يموت أمثالنا»؟ وماذا لو بقيت حياً، سنة، مائة؟. في النهاية سأموت. يمكن أن أتحول إلى إنسان خرف، إلى إنسان مشلول، الصغار

والكبار ينظرون إليّ بأسى وقرف. أمس أحسست بقرف جارح وأنا أتقيأ، الشراب لذيذ في حينه، لكن بعد ساعات، في الصباح التالي، يتحول الإنسان إلى ذبابة، أكره الذباب والبعوض، وكل الحشرات الأخرى، الصغيرة والكبيرة، الكبيرة بشكل خاص، لأنها تخترق العظام، تنفذ إلى العصب، تلدغ، تتموج، تتحول إلى عراك مع الليل والأحلام.

حلمت في الليلة الماضية أني أسوق سيارة كبيرة، لونها رمادي، زاهية، قوية، لها كوابح مثل سن الفيل، وأسقط في هوة سحيقة وتحترق السيارة، وأموت. كان الموت لذيذاً، الموت يوقف الزمن، ولكن كيف يشعر الإنسان بالزمن؟ سؤال طالما عذبني، وما زال حتى الآن بلا جواب، لا حاجة لأن يجاب على كل سؤال، أيهما أول: الدجاجة أم البيضة؟ أكره البيض، يسبب لي بثوراً، يؤلم كبدي. «ضع رأسك الواهن على كبدي» أمي كانت تقول، قلبي على ولدي وقلب ولدي على الصخر. ماتت أمي منذ عشر سنين. أصبحت يتيماً، وشعور اليتم إحساس متواصل يلازم الإنسان حتى اللحظات الأخيرة. ما أقبح أيام الوحدة، أيام لا يستطيع الإنسان أن يفعل شيئاً، لا يستطيع البكاء، لا يستطيع القراءة، وحتى الصراخ يصبح صعباً، أريد أن أصرخ في الشارع، أمام الحيوانات، لا أخاف من أحد، هذا من حقي، لماذا لا يدافع الناس عن حقوقهم بجرأة؟ لقد فقد الإنسان حقوقه بالتدريج، لم يبق له شيء.. ولكن لماذا؟ لا أريد جواباً، ليجب كل إنسان كما

يريد، ولكنني متأكد من الجواب، وها أنذا أطرح سؤالاً طالما عذبني، هل الحرية هبة من أحد؟ لماذا لا يكون جميع الناس أحراراً بشكل ما؟ السلطة، القانون، رجال الشرطة، القضاة، السجون، المخاتير، وآلاف الأشكال القسرية الأخرى التي خلقها الإنسان ليكبل نفسه، مجنون الإنسان، لا يعرف كيف يعيش في ظلال الحرية، ولكن كلمة إنسان مجردة، لأن الذين وضعوا هذه القيود هم الأقوياء، وضعوها لكي يحرموا الضعفاء من فرصة التنفس، من الحركة، واحتمل الصغار والضعفاء هذه القيود وارتضوها، ثم اعتبروها غير قابلة للكسر، وحملوها معهم إلى القبر.. تصوروا حتى الموت له طقوس ومكلف جداً، حرية الموت مباحة ولكن الدفن محرم، لم يبق للإنسان إلا أن يتوقف عن الموت. تبقى جثته في العراء، تتفسخ وهي واقفة، تتحول إلى رائحة كريهة تملأ الأنوف، وليُشتم بعد ذلك، لا يهم! الميت لا يحس، لا يعرف ما يقوله الأحياء، ولكن لا حياة لأي شيء، كل شيء ميت، عندما يفقد الإنسان حريته فهو ميت. عندما يعذب دون أن يكون قادراً على الدفاع عن نفسه، عندما.. هذه الكلمة معذبة، معوجة، مشوهة؛ صوت الراديو يملأ الدنيا، انتهى القرآن، الشيخ الحصري قرأ آلاف الآيات، والناس تهز رؤوسها في كل الأماكن، الرؤوس تهتز خوفاً، اقتناعاً، رغبة في الجنة، نفاقاً خوفاً من النار، وبعد القرآن حديث: نواقض الوضوء، كلمات خطيرة، كبيرة. وأغيب عن الدنيا، أتحول إلى صنم، لا أسمع شيئاً، لا أفهم

شيئاً، كل الكلمات في أذني قرع طبول، طبول الموت، وأتذكر الشيخ والبحر والصراع الذي لا ينتهي بين الإنسان والأشياء الأخرى، الإنسان والبحر، الإنسان والطبيعة، الإنسان والحرية، تصوروا بدقة كلمة الحرية! من الكلمات التي تشبه حجر الخلد، لا تعني شيئاً محدداً، خلقها الإنسان نفسه كمحاولة للعزاء، هل يستطيع الإنسان تأمين طعامه؟ هل يستطيع مواجهة المرض؟ هل يستطيع أن يدفع فاتورة الكهرباء في نهاية الشهر؟ هل يسافر دون أن يشد شعره ألف مرة؟ هل يستطيع أن ينام دون بعوض وكوابيس؟ هل. احتقروا كلمة هل. هلت ليالي القمر، وكل الليالي التي تهل أيضاً، ونغرق في وهم أيام آتية، أيام نريدها أن تكون جميلة، ولكنها لا تأتي أبداً، أيام تشرق فيها الشمس، ثم تكبر وتسمن، وتتحول إلى كرة يتقاذفها الأطفال في حدائق كبيرة، وعندما يملّون يتركونها لتصبح قذيفة تنطلق في وجه الإنسان وتقتله. السلاح في يد الطفل يجرح، وفي يد الكبار يجرح، وفي كل مكان يجرح، وأشعر بالجرح المتقيح في يدي يتحول إلى نبض قاس دائم، جبهتي ساخنة، رقبتي، لا أستطيع المقاومة، أنا حر، حرٌّ تماماً وتدور الدنيا، ولكن الميادين تظل في أماكنها، وكذلك الجبال والمراحيض وأدوات الزينة والمخابز ومحطات القطارات وأعمدة النور. ما أبشع أن يشنق الإنسان على عمود نور! لماذا لا يترك ليعيش كما يشتهي؟ من أعطى الناس الآخرين الحق بقتله؟ من أعطاهم الحق في أن يقبضوا عليه ويعذبوه، لأنه

يختلف معهم؟ يضربونه حتى يختنق، ويتحول في النهاية إلى حيوان متورم لا يعرف اليد اليسرى من اليمنى، لا يعرف هل يقول لا أم يقول نعم؟ ويخاف وهو يردّ المرحبا.. يخطئ عندما يعدّ إلى العشرة!

دقات الساعة، نشرة الأخبار.

الطائرات تقذف النابالم.. موجة أخرى من الطائرات تقتل الأطفال الصغار والحيوانات.

رجال يموتون. كؤوس تقدم بلا انتهاء. أنخاب الويسكي في حفلات كبرى. في أركان هادئة.. وبعد ذلك ترتيبات من كل الأنواع، ولكن الطائرات ما تزال تلقي قنابل زنة الألف كيلو، والرجال يموتون باستمرار، وأقداح الويسكي تقدم باستمرار.

- ويسكي مع الصودا؟
- ويسكي مع الثلج فقط!
- ويسكي؟ بيرة؟
- قهوة!
- قهوة سكر قليل؟
- حبة ليبريوم عيار عشرة.

.. والرجال يموتون، يموتون، وصور الصغار في محافظ جلدية عتيقة في الجيوب، وصور الأصدقاء بأوضاع مضحكة، وطوابع بريدية، وعناوين، وأرقام هواتف، وأحلام صغيرة في زوايا الذاكرة:

- عندما تنتهي المعركة سأعود إلى عملي في الحقل.
- عندما تنتهي المعركة سأعود إلى مصنع النسيج.
- عندما تنتهي المعركة سأعود إلى البطالة والتشرد.
- عندما تنتهي المعركة سأعود إلى معركة أخرى.

الحياة معركة، لا يفوز في هذه المعركة إلا القوي، ولكن من هو القوي؟ الأكثر عدداً؟ الأكثر صدقاً؟ الأكثر جرأة؟ الأكثر عقلاً؟

. . . وأتيه، تغيب الأفكار من رأسي، يتحول رأسي إلى مزبلة، توقفت يوماً عند مزبلة، كنت أنظر حولي، فأجد أكوام الزبل، وعلى البعد قلعة، وإلى اليسار البحر، وكل شيء ساكن، حتى الذباب على بقايا الأشياء سكن. أتحرّك بارتخاء، أريد أن أغادر مزبلة الحاضر لألحق بمزبلة المستقبل، أركض، ألهث، أتعثر، ولكن في النهاية أصل إلى المزبلة الكبرى، إلى الصالونات: ضحكات طويلة متراصة، وجوه متألقة، عيون تتظاهر بالرضى، قلوب تملأها أحقاد غير ظاهرة، وأفكار ورحلات، رحلات الصيف، ما أقسى الصيف، صيف دام، يغتال الطيور، يطردها، يهجرها، لا يترك طيراً، لا يترك عرقاً أخضر.

وأحلم بالشتاء، بالربيع، وأصل إلى واحة خضراء، أزهارها بلون الدم القاني، ينابيع الماء باردة، وتجري بلا توقف، وأجري، أخرج من جلدي، وأدخل إلى جلود الآخرين، والآخرون عيون مطفأة، يأكلها النعاس والسأم، لقد

غادرني الفرح، منذ كنت طفلاً لم أضحك، لماذا يضحك الإنسان؟ هل يضحك الحيوان وهو يضاجع أنثاه؟ كيف يعبّر الحيوان عن فرحه؟ عن رغبته؟ الكلاب تمرغ أجسادها بالتراب وكذلك الحمير، أغلب الحيوانات هكذا! أما الإنسان فإنه يضحك! هل الضحك ميزة؟ لماذا لا يمرغ الإنسان جسده على التراب؟ وإذا كان يخاف أن يتسخ ليمرغه على البلاط، على الفراش، على النجوم.. يقولون بعد تفكير طويل.. طويل: «الإنسان حيوان ضاحك» الضحك ميزة! تصور!. أنا متأكد أن الإنسان في الوقت الحاضر ناقص. الشيء الوحيد الذي يستطيع أن يمرغه مثل الحيوان هو لسانه. يحركه في كل الاتجاهات، بلا توقف، اللسان عضو إضافي، لا علاقة له بالفرح، ولكن ألا تلاحظون أنه يلوك غيره، وعندما يحاول أن يعمم هذه الحركة على كل الجسد. لا يصل. الإنسان ناقص، يجب أن تصدقوا ذلك، إنه ميزات النقص، ميزة العبودية، ميزة النفاق، ميزة القيد، سأحطم قيدي ذات يوم، سأخرج إلى الشارع عارياً، عارياً تماماً كما ولدتني أمي، أتجول في الأسواق، أتوقف عند واجهات المحلات المخصصة لشراء الفروج وإذا احتك بي جسد امرأة سأكون فرحاً، سأدعوها إلى تناول كوب جزر أو كأس نبيذ. وإذا قالت لا أستطيع، وإذا قالت زوجي، أقول لها فليأت زوجك، ويشرب جزراً أو نبيذاً أيضاً، وليدعُ أصدقاءه، الدنيا من أولها إلى آخرها مرعى كبير، ونحن أغنام نرعى بلا قيود، كل شيء لنا، لا أحد يستطيع أن يمنع شيئاً،

لا أحد يستطيع أن يقول هذا لي، كل الأشياء لكل الأحياء، ونسير في الطريق الطويل، أذرعنا مدلاة إلى جوانبنا، عيوننا تنظر إلى الزهور وحبات الكرز وإلى القطعان الهائمة بفرح لا ينتهي، وعندما نريد أن نعبّر عن فرحنا نتقلب على ظهورنا في الشوارع، في الحدائق، على الأرصفة، فوق الأسرّة، في كل الأماكن، نمرّغ وجوهنا بالندى، بحبات الفاكهة، بالقبل، لا نخاف من شيء، من أحد، ونحب السماء الصافية، عناقيد العنب، الزعتر، الكمثرى، وننظر إلى القرود والسناجب برغبة الاتحاد الكلي.

لماذا لا يعيش الإنسان إلى جانب صخرة أو في غابة أو داخل النهر؟ لماذا لا يركب دراجة ولا يعيش فوق شجرة؟ ولمَ أصبحت كل حروف اللغة عبارة عن سلال للمهملات؟ كل العيون مفتوحة في الظلمة، وأحس أن قلبي قد توقف، أنزل إلى الشارع بسرعة أنظر إلى أقرب رجل، وأقول له بحب صوفي: ساعدني أيها الرجل الطيب في حفر قبري، ينظر إليّ، يشد على يدي في وداع أخير، ونبدأ نحفر قبراً، أريد للقبر أن يكون واسعاً، رطباً، بلا زخارف، وأن يكون في مكان لا يصله الذباب، أو أشعة الشمس، أريد أن أظل في هذا المكان وحيداً وأنام بهدوء دون أن أُغضب أحداً، أو يغضب مني أحد، ويشد الرجل على يدي، مرة ثانية، بعتاب، «لم هذا الفراق المبكر؟» وأقول له: لقد مللت من رؤية الشمس كل يوم دون أن نتغير، مللت سماع نشرات الأخبار والكلمات الكبيرة،

أريد أن أتوقف، أن أمضي إلى أماكن أخرى. يسمعني الرجل، يفهمني، وأخيراً يطلق زفرة وحيدة ويتركني لأنام. وبعد أن يمرغ وجهه ويديه في ضوء الشمس وحبات التراب، يلقي على صدري حجارة بيضاء رقيقة، ويلقي التراب والزعفران فوق الحجارة، ويقول: نم أيها الإنسان... لقد حان وقت النوم. ومن قبري أصيح: لقد حان وقت النوم، وسوف تنامون أيها الراكضون في كل الاتجاهات، وأنتم الذين تحركون ألسنتكم بكل اللغات.. سوف تنامون. وأحس.. بعيداً فوق التراب جسداً يتقلب فوق الصخور، وفوق الزعفران، فأقول: لقد بدأ الإنسان يتحول إلى حيوان كامل.. أصبح أقل عرضة للعذاب والنقص، ولا شيء يغفر له الآن سوى أن يستمر في الطريق نفسها، وتنفذ الشمس بهدوء أصم، وتظل أغنية تتردد: سنرجع يوماً.. ويتوقف الغناء.

تدق الساعة وتبدأ نشرة الأخبار مرة أخرى: القنابل تتساقط والناس يموتون دون أن يكون لهم الحق في النظر إلى الطائرات التي تلقي عليهم قنابل زنة ألف كيلو، ولا الحق في أن ينظروا إلى أعدائهم أو يعرفوا أسماءهم.

وتدور أقداح الويسكي في الأماكن الكثيرة المضاءة، والزلازل الكبيرة تجتاح ليما وتركيا، وتقدم الإسعافات والمؤن والخيام، وتسقط الطائرة في المحيط مع ملاحيها السبعة وكل الركاب، وتموت أحلام صغيرة وتنتهي محفظة جلدية لونها بني، فيها صور أطفال وطوابع وقطع نقدية صغيرة..

واضرابات العمال لا تنتهي، الكبار يأكلون الصغار، السمك الكبير يأكل السمك الصغير. ثائر في غابة بعيدة يموت، ووزارة يعاد تشكيلها وأخرى تسقط، لا جديد أبداً في هذا العالم.

ماذا ستقول الأخبار ذات يوم عندما يتحكم الإنسان بالزلازل والفيضانات؟ وعندما لا تمتد أيدٍ غريبة إلى أرغفة الصغار أو إلى دراجاتهم؟ ماذا ستقول الأخبار يوماً بعد أن تتحقق أفكار الصغار وبعد أن يموت الكبار أو يهزمون؟

هناك وقت كافٍ لأخبار خطيرة!

. . . ستقول الأخبار: فريق الشمال تغلب على فريق الجنوب.. سكان أفريقيا يجنون محاصيل أكثر مائة مرة من قبل، عناقيد العنب تحولت إلى زجاجات نبيذ، أصبح الإنسان فناناً يرسم لوحاته الرائعة في الهواء الطلق، وفي ضوء القمر، ويستطيع هذا الإنسان أن يرى ما يرسم.

. . . وماذا أيضاً؟ من مات؟ من ولد؟ أية أفكار جديدة تسود الأرض؟

وتأتي الأخبار:

الأفكار القديمة بدأت تذبل وتموت، الأفكار الجديدة مثل الأطفال الصغار تكركر بلا توقف، تقول أشياء رائعة، تمرغ وجوهها بالندى وأشعة الشمس والزهور، كل شيء يتحول إلى نغم عذب يعزف في الغابات البكر، لقد انتهى الموت، وتوقف الرجال عند مفارق الطرق، يلتقون بنساء جميلات، يحملون

إليهن سلال الياسمين وعقود الزمرد.. ويضحكون ويستحمون معاً في ضوء القمر!

صوت الراديو ما يزال يؤكد حتى هذه اللحظة: الطائرات تُسقط القنابل، البيوت تتهدم، البشر يتشردون، يموتون.. حتى مباراة الكرة يتخللها نزف الدماء.

والصفقات الكبيرة يعقدها أناس مهذبون يضعون نظارات على عيونهم في نهاية النشرة.

الأحوال الجوية: طقس صيفي جميل، درجات الحرارة... درجات الرطوبة... وتصبحون على خير.

ويسقط القلم من يدي بجنون.. أغلق الراديو بعصبية، وأمسك كأس العرق وأواصل الشرب.. ولكن بنهم هذه المرة.

عالمان

إلى عمانويل لبيب

. . . في تلك المدينة الألمانية الصغيرة، التي أعيد بناؤها من جديد، بعد أن هدمها الأمريكيون في الغارات الأخيرة من الحرب، ذهبت وصديق إلى بار قريب. أردنا أن نكون وحيدين في الليلة الأخيرة. أردنا أن نقول الكلمات الأخيرة قبل السفر!

جلسنا في ركن منزوٍ، وبدأت زجاجات النبيذ تفرغ واحدة بعد أخرى، وقد حاولنا مع كل كأس جديدة أن نخلق جواً خالياً من الحزن.

تذكّرنا مئات الأشياء الصغيرة ومئات الوجوه، حاولنا أن نستعيد ذكريات بعيدة ونعطها شيئاً من حرارة الماضي لتبدو كبيرة خارقة!

الوجوه حولنا تتحرك، تتغير، ولكن لا نراها ولا نحس بها إلا أطيافاً، وصديقي يردّ باختصار على تحيات الذين يعرفهم، وفي محاولة غريزية للدفاع، لإبعاد أي زائر أو عابر عن الجلوس معنا. أما محاولات الموسيقي المتقاعد فقد انتهت، بعد أن قابلناها ببرود، ولكي لا تتكرر تجربة ليلة سابقة، عندما

شاركنا طاولتنا وحملنا على الغناء، وأرغمنا أكثر على سماع أغانيه.

في ركن آخر جلس رجل مسنّ، وحيداً. كان يلقي نظرة سريعة نحونا بين فترة وأخرى، وكأنه يبحث، عبر الدخان وأقداح البيرة. الابتسامة الحزينة التي ترتسم على شفتيه، تعبّر عن شيء ما. كنا نهرب من نظراته، وتشغلنا عنه الذكريات. وعندما تلتقي نظراتنا ثانية كانت عيناه تعبّران عن رغبة ما، وتتحرك يده بعصبية حاملة كأس البيرة لنشرب معاً!

ونغيب في الذكريات. نتذكر إنساناً لم نره منذ سنوات، وتمرّ أطياف بشر منسيين. ونتذكر. ثم بلهجة المودة والتهديد نطلب إلى بعضنا ألا ننقطع عن الكتابة. أن نكتب عن كل شيء، وأن نعيش تجارب كبيرة، وأن نغرق في حياة تفيض برائحة البشر والعالم، لكي نتعرف على البشر وهمومهم، وأن نسكر ونضحك ونغامر. لنكتشف ونتعلم!

وتعود النظرات لتلتقي سريعة كأنها تخاف شيئاً، وتبرق عيناه بذات الفرح وهو يرفع يده بالكأس.

انقضى أكثر الليل. لم يبقَ في البار إلا نحن وذاك الرجل المسنّ وثلاثة رجال انضم إليهم الساقي وبدأوا يلعبون الورق.

ومن ركنه البعيد. بدأ يغني. كانت أغنية حزينة متعبة، لونتها كؤوس البيرة برتابة حادة. لم يكن الرجل المسنّ يكتفي بالغناء، كان ينقر على الطاولة بضربات بطيئة تشبه وقع حوافر الخيل. وما كدنا ننظر إليه هذه المرة حتى كانت تلك النظرة

مثل جسر أقيم في لحظة. فما كان منه إلا أن حمل كأسه وجاء.

وقف فوق رؤوسنا، ونظر إلى كل شيء بهدوء، نظر إلينا وإلى الجدران والستائر والدخان. ثم أمال رأسه وأخذ ينصت إلى المطر، وشعرنا أن جواً صعباً يمتد بيننا. لم نستطع أن ندعوه إلى الجلوس ولم نستطع أن ننصرف عنه. كنا نريد تصرفاً ما ينقذنا من الصمت ويبتلع نظراته التائهة الحزينة!

وضع كأسه على الطاولة المجاورة وانحنى فوقنا، بعد أن مدّ يديه مثل دعامتين على طاولتنا..

الصمت ما زال حاداً مثل وتر مشدود، وعيناه تدوران، تحدقان في الفراغ، تنظران إلينا بحزن وتعب.. وأخيراً جاء صوته ثقيلاً غامضاً:

- بقي لي عشرة أيام.. نعم عشرة أيام..أين يمكن أن أذهب؟ أريد بشراً. آه لو لم تمت. الآن انتهى كل شيء!

وبدأت نظراته تأخذ شكلاً عصبياً، وبعد فترة صمتٍ قال بتحدٍّ:

- اشربوا.. تحدثوا.. اضحكوا.. ولكن لا أريد أن أذهب إلى البيت. إلى ذلك الجحيم. وهذا المطر القذر لم ينقطع منذ ثلاثة أيام. أين يمكن أن أذهب؟ مع من أتحدث؟

وفي لحظة جمع كل نفسه، اعتدل في وقفته، وأخذت ملامحه شكلاً قاسياً. نظر إلينا وهو يهز رأسه ثم قال:

- لا يمكن أن نتحدث الآن. لقد أردت أن نكون أصدقاء، لكنكم كنتم بعيدين.. سأشرب كأسي وأمشي.. لا فائدة. لقد ماتت زوجتي قبل أسبوع. وابنتي الآن في رحلة مع صديقها!

ضحك بسخرية ثم أضاف:

- عشرة أيام من الإجازة سوف أقضيها بشكل ممتع!

- وبعصبية شرب كأسه دفعة واحدة وخرج.

كان المطر ما يزال يتساقط عندما خرجنا.. لم نكد نمشي بضع خطوات حتى وجدنا الرجل يستند إلى الجدار ويبكي.. كان يبكي بحرقة!

مشينا بصمت. ولم نستطع أن نستعيد أية ذكريات أخرى.

عملة مزيفة

تموز (يوليو). . الساعة تتجاوز الثانية، ريح ساخنة مغبرة تلفح الوجوه، إسفلت الشارع يذوب تحت الشمس الحارقة، انتظار مشحون بالقرف، آلاف الشتائم تندلق إلى الداخل دون صوت. الذباب ينتقل فوق أكداس اللحم باسترخاء لزج. السكين تغوص في الذبيحة المعلقة مثلما تغوص في القلب، صريرها يشبه صرخة طائر مذبوح. الأشياء في حالة غرق. سقوط. عصبية يائسة. والكلمات تنزلق بتعب ورخاوة لتصطدم بالضحكة المرسومة إلى جانب غمزة العين!

ببلاهة أقف. كل شيء حولي لونه أصفر. الجدران، اللحم، أكياس الورق، الوجوه، السيارات العابرة. والوجوه مرة أخرى! فتاتان. أختان، رأس الكبيرة يرتفع فوق مستوى الرف المملوء بقطع اللحم والعظام. عيناها تنظران إلى كل شيء بخوف وباستطلاع. وجه الصغيرة يكاد يلتصق بالجدار. وبين لحظة وأخرى تقف على رؤوس أصابعها لترى شيئاً. وقبضتها تمسك بثوب أختها كاستغاثة أخيرة!

- نصف كيلو شرحات.

- عندك كبدة وقلوب؟

- نصف أوقية هبرة لمريض.. الله يستر عليك!

- 2 كيلو بالعظم.

صوت الريح، صوت السيارات، الإعياء، القرف، الذباب الذي لا يخاف يتنقّل فوق أكوام اللحم، فوق العظام..

أخذ الجميع. لم يبق غيري والصغيرتان.

أريد لحماً. لا أريد أي شيء! آه لو أنام الآن. في هذه اللحظة، لو أغرق في ماء بارد. بارد. لو أتخلص من كل شيء، من جلدي، من عيني، من اللزوجة التي أحسها فوق روحي. آه لشد ما أكره كل ما حولي: اللحم، الريح، الإسفلت. آه لو أتقيأ!

مدت الكبيرة يدها: مجموعة من الأكياس والأوراق مطوية بفوضى. وبصوت صغير.. صغير:

- أريد عظاماً بدل هذه.

يمسك الأوراق، يقلبها، يطويها، يعيدها. دون كلمات. يحرك يده بقرف. تنزلق الصغيرتان إلى الخارج.

إنها لحظة توقف فيها كل شيء، تجمد تماماً. الفكر، الرغبة، الريح، الشمس، الماء البارد، الكلمات. كل شيء..

اللحظة الثانية: القبضة الصغيرة تفلت من كل شيء بجنون. تمر سيارة مسرعة.

تترك خلفها كومة من اللحم الطري المعجون بالدم.

الأكياس. الأوراق تتطاير.

أجلس على الأرض، وأتقيأ.

وتبدأ الريح مرة أخرى. ريح لافحة مغبرة تكنس الإسفلت واللحم الطري والذباب. وكل شيء. كل شيء!

ابتعدت الباخرة... كثيراً

أطلقت الباخرة صفرتها الثانية.. وبعد قليل سوف تتحرك.

الأوراق الملونة تمتد كشريط لا ينتهي بين الرصيف والباخرة، تريد أن تمسك بها وأن تمنعها من الرحيل!

آلات التصوير لا تتوقف، البالونات الملونة تقذفها الأنفاس الحارة نحو الباخرة، باقات الزهور تحملها الأيدي بفرح وبحزن.. الأوراق الملونة شريط لا ينتهي!

جرّت خطواتها بصعوبة، كمن يدفع إلى الموت، وباقة الزهور مثل حمامة ترتاح على صدرها. كانت دموعها تتساقط.. تتساقط بغزارة، والعيون تنشد إليها، تتابعها في رحلتها الحزينة، وهي تبدأ بصعود سلم الباخرة.

ثبّت نظارته، مسح الدمعة التي خبأها طويلاً، اضطربت حركاته، مد يديه، أنزلهما، اضطرب أكثر حين وصلا إلى النقطة التي يجب أن يفترقا عندها.. مدّ يده برجاء حزين إلى شعرها، إلى جبينها، إلى كتفها، أمسك بيدها يريد أن يمنعها،

لكن فجأة، وبعصبية قبّلها وركض إلى الرصيف!

بدأت الباخرة تتحرك بهدوء، أخذت الأوراق تمتد وتتطاول حتى تمزقت وتساقطت في مياه البحر وعلى ظهر السفينة.. وبدأت الأيدي تتراخى حتى كفت عن الحركة، وتداخلت ملامح الوجوه ثم بدأت تغيب تدريجياً.

وقفتْ على الحاجز تلوّح له بباقة الزهور وتبكي.. ظلت هناك حتى ابتعد كل شيء. ولمّا لم تعد تحتمل، ركضت بعصبية إلى مقصورتها وكأن شيئاً يطاردها!

هدأ كل شيء في ممرات الباخرة. ولم تعد ترى إلا أطياف بطيئة تظهر مسرعة ثم تتوارى في الغرف، في البار، في الزوايا!

ظلت وحدها تملأ الرأس، مثل الدوار لا تغيب. وشعرت بحزن شديد.

حاولت أن أراها مرة أخرى، انتقلتُ بين البار والمطعم مرات كثيرة طوال النهار. لكن لم أرها.

في المساء، وأنا أشرب كأساً من الكونياك، قدرت أن الدموع التي رأيتها تتساقط من عينيها خلفت في نفسي هذا الحزن الذي يسيطر عليّ الآن.. وتذكرت أشياء حزينة أخرى!

في اليوم التالي هاج البحر، تساقط الركاب من الدوار. صعدت إلى ظهر السفينة لأتغلب على حالة الغثيان التي بدأت تنهشني. رأيتها هناك. كانت وحيدة حزينة متعبة. وتنظر باتجاه

الشاطئ الذي تركناه!

كانت تحدق في الفراغ. وتأكدت أنها لا ترى سوى شيء واحد. ولكن لم تصبر طويلاً. ضربت الحاجز بعصبية ومرارة وركضت.

ظهرت في المطعم، نظر إليها الكثيرون، لكنها لم تنظر إلى أحد، والطعام الذي قدم إليها تركته دون أن تمسه.

أثناء الليل، ونحن في صالة السينما، كانت عيناي ترقبان، تنظران في الظلام لعلّي أراها. لم يكد الفيلم ينتهي حتى رأيتها في زاوية الصالة، كانت تربض مثل قطة صغيرة. حاولت أن تستبعد صورته وهو يضغط نظارته، وهو يمسح الدموع الصغيرة المرتجفة التي بدأت تتساقط من عينيه مثل حبات الزئبق الصغيرة، ولم يحاول أن يمنعها. كان مظهرها وهي تدخن سيكارتها في الزاوية يذكّر بأحزان لا تنتهي!

في اليوم الثالث، والباخرة تصل ميناءها الأخير، حملت حقيبتي ونزلت.

في لحظة ما التفت إلى الوراء. كانت تنزل السلم، معطفها الكستنائي يلفها بشدة، حركتها رشيقة، راقصة، ويدها تماماً تحت إبطه، كانت تتأبط شاباً قصيراً متين البنية، تنظر إليه بفرح وتضحك، وتتمسك به بقوة وسعادة!

وفي تلك اللحظة، عرفت أكثر من أي وقت آخر، لماذا يصبح الإنسان حزيناً بهذا القدر!

البدء.. من النهاية

. . . من الأمور التي تعذبني كثيراً، ضعف الذاكرة.

إن ذاكرتي ضعيفة لدرجة تشعرني بالتعاسة، فأنا لا أستطيع استرجاع وترتيب الحوادث حسب وقوعها، إذ كثيراً ما أنسى أو أخطئ في ترتيبها، فأتصور أنها وقعت في وقت معين، بينما تكون قد وقعت في وقت آخر، أو لم تقع البتّة. وقد لجأت إلى وسائل عديدة للتغلب على هذه الحالة، إلى أن اكتشفت طريقة طريفة، ومن ابتكاري الخاص، كانت ذات نتائج خارقة. وإذا أردت أن أوضحها لكم بعبارة واحدة أقول: «البدء من النهاية».

لقد أصبحت ألزم نفسي ببرنامج صارم، فأنا أعد الأرقام من النهاية إلى البداية؛ أبدأ من المائة مثلاً نزولاً حتى الصفر. وإذا تذكرت رقم هاتف أحد الأصدقاء، أستعيد هذا الرقم من جهة اليمين إلى اليسار، وكثيراً ما أعدّ شهور السنة بشكل عكسي أيضاً. . قابلت مصاعب كثيرة بالطبع، وأخطأت مرات

لا حصر لها.. لكنني أشعر الآن أن الأمور تسير نحو نتائج أفضل.

قد تستغربون إذا قلت لكم، إن من المحاولات الأخرى التي لجأت إليها: استعادة الوقائع التي أشاهدها، أو أقرأها، من نهايتها. أضع النهاية أولاً، ثم أبدأ بالرجوع إلى البداية خطوة.. خطوة.

إذا شاهدت فيلماً مثلاً، وترك في نفسي أثراً، أحاول أن أتذكر وقائع الفيلم مرة أخرى، ولكن من النهاية؛ ثم أفرز العناصر المشتركة بيني وبين البطل، لأرى أية صفات تجمعنا. وأصدقكم القول إن هذه المقارنة كثيراً ما جرّت عليّ متاعب نفسية منعتني من النوم، ودفعتني عدة مرات لأن أحاول التوقف عن هذه الطريقة، ولكنني لم أستطع ذلك دائماً، خاصة إذا اكتشفت شيئاً مشتركاً بيني وبين البطل.

قد تقولون إن هذا استطراد يدل على الغرور. لكن أقول لكم إنه يزيل شعور التعاسة الذي كثيراً ما ينتابني.

الأمر ليس هيناً إذن، كما يبدو لأول وهلة. ولكنني كي أصل إلى نتائج جيدة ومريحة كنت أستعين بوسائل إيضاح، كما أحب أن أسميها: ألجأ إلى الورقة، لأكتب وأرسم، منطلقاً من البؤرة.. وعلى الشكل التالي:

«البطل منتحراً»

هذه نهاية الفيلم. أكتبها بخط عريض وأضع تحتها خطين.

ثم بعدها: «محاولة أخيرة من البطل لاستعادة المرأة التي بدأت تكرهه».

وأفكر بعمق في أسباب الكراهية بين البشر، وقد توصلت ذات مرة إلى أن الأمر له علاقة وثيقة بحق الملكية، لا تسألوني إيضاحاً الآن لأن ذلك استنتاج مبكر، أريد في وقت من الأوقات التعمق في دراسته، وسأقدمه مدعَّماً بالأدلة القاطعة.

بعد ذلك: «وُجد رجل آخر في حياة هذه المرأة».

أعطي لنفسي الحق في المقارنة بين هذا الرجل والبطل، لأرى أيهما أطيب نفساً وأحق بالمرأة، وقد صادف كثيراً أن اختلفت مع كاتب القصة أو الفيلم والمخرج، لأنه كان لي رأي آخر. كنت أتصور أن الأمور كي تكون أقرب إلى الواقع والمنطق، يجب أن تتغير ولكن ليس من مهمتي دائماً أن أقترح حلاً لمشكلة من هذا النوع، وإن كنت أفعل ذلك بعض الأحيان.

بعد ذلك: «المرأة والبطل يسيران في غروب الشمس».

أرجو المعذرة إذا رجعت خطوة صغيرة إلى الخلف، لأذكر لكم ملاحظة صغيرة:

أنا لا أكتفي بالكتابة في ترتيب الحوادث. وإنما ألجأ إلى الرسوم أيضاً، وهي رسوم بسيطة تماماً، قد لا يفهمها غيري؛ أرسم صورة امرأة في الوسط. ثم أرسم في كل جهة صورة رجل، وأشير بأسهم..

أعود مرة أخرى.. «المرأة والرجل يسيران في غروب أحد الأيام بحزن، وقد صمّمت المرأة أن تقول له إنها لم تعد تحبه، وتريد أن تنهي علاقتها معه..»

وأرسم إشارة سوداء قاتمة جداً، تدل على أن الحب قد اهتز وتعرّض لاحتمالات التصدع.

بعد ذلك: «شاطئ البحر. المرأة والرجل يستحمان، يضحكان، يركضان، مثل طفلين»

وأرسم ذلك بأشكال أحاول أن تكون معبّرة وذات تأثير قوي، وهذا يدفعني لأن أتوقف عن متابعة أية فكرة، وأهتم بتكوين الصورة، وقد أنقلها إلى ورقة أخرى أكبّرها.

بعد ذلك: «مطعم صغير على شاطئ البحر، وقد جلسا معاً في زاوية، وشعور السعادة يطغى عليهما، بعد أن تحدثا عن حياتهما السابقة التي كانت تمتلئ بالمرارة والسأم».

يجب أن أضع ملاحظة جديدة، إن المرأة في الصورة التي أرسمها الآن، تبدو مختلفة عن المرأة في الصورة الأولى. لأني استعملتُ هذه المرة الألوان بينما في الصورة السابقة اقتصرت على استعمال لون واحد.. طبيعي أن الفكرة واضحة لكم، وتعبّر عن جو نفسي مختلف.

بعد ذلك: «في مكتبة، التقت عيونهما وهما ينظران إلى كتاب واحد».

ومن ثم: «حالة من الضجر تسيطر عليه، فيغادر البيت

ويهيم على وجهه في الشوارع، وبدون رغبة يدخل المكتبة». هكذا إذن بدأ الفيلم.

ولكن لو حاولت أن أستعيد دقائقه من البداية، لاصطدمت ببعض العقبات. قد أنسى مقطعاً مهماً وقد أخطئ في ترتيب الحوادث. أما هذه الطريقة، فإنها تمسك النتائج الأساسية، تمسك بالعقد، كما تسمى بلغة الفن والأدب، وبعد تفكير عميق تبدأ عملية التحليل وفك العقد.

ذات مرة، حاولت أن أتذكر أحد الأفلام من بدايته، فانتهيت إلى أشياء أخرى تماماً، وقد كانت محزنة، أو على أقل تقدير مختلفة. ربما كان الفيلم نفسه الذي حدثتكم عنه.. لا أتذكر. إذ بعد أن دخل المكتبة.. أو ربما المتحف، لا أتذكر، التقت عيونهما، وتكلما، وعند ذلك انتهى الفيلم، وغرقت في أفكار أخرى. مرت في ذاكرتي أسماء الكتب، عشرات الكتب، أو ربما لوحات، لا أتذكر. توقفت عند أسماء المؤلفين.. أو الرسامين، لا أتذكر. وبعد أن انتهيت من الكتب، أو اللوحات.. لا أتذكر، انتقلت وتصورت نفسي أنني وهذه المرأة، وقد أصبحنا أصدقاء. وبدأنا نلتقي. ثم تحولت الصداقة إلى حب عاصف، كنا نتخفى عن عيون الناس، ونبكي بعض الأحيان، وأخيراً لم نجد مفراً من الزواج، وسافرنا بعد الزواج إلى شاطئ البحر.

وهنا أعود مرة أخرى إلى شاطئ البحر الذي رأيته في الفيلم.. إذا حاولتم المقارنة تجدون أن مقطعاً مهماً من الفيلم

قد سقط. وهذا الذي أقوله لكم الآن كان نتيجة مقارنة مرهفة، اضطررت لأن أجريها، بعد أن وضعت الأفكار الرئيسية في ورقتين منفصلتين، وبدأت أقارن. فحيث أجد نقطة مشتركة أضع خطاً أحمر. أما النقاط التي لم يؤشر عليها، فقد تبين لي أنها لم ترد. .استغربت هذا وشعرت بالألم، لا أدري لماذا؟

بهذه الطريقة اكتشفت أن الوقائع تفقد تسلسلها وأهميتها. وبعد تجارب، فكرت بالطريقة العكسية، وكان ذلك نتيجة دراسات معمقة.

إن الطريقة التي أتبعها، وقد أوضحتها تواً، ليست سهلة. إذ تحتاج إلى تسجيل الوقائع على ورقة كبيرة. وترك بعض المسافات. لعل أمراً لم يكن متوقعاً يبرز في لحظة ما. وبعد أن أشعل سيجارة، أحصر ذهني في اللحظة الأخيرة تماماً. أتذكر الوجوه والمناظر، وقد أضطر لإغماض عيني عدة مرات لعلّي أسترجع اللحن المميز الذي رافق النهاية. . فإذا وفقت في استعادة هذه العناصر، أضع في صدر الصفحة النقطة الأساسية، وأحب أن أسميها بؤرة الضوء. . وعليّ هنا أن أقدم ملاحظة عاجلة فأقول: إن بؤرة الضوء يجب أن تكون في صدر الصفحة تماماً، كبيرة واضحة، ومكتوبة بلون مختلف عن الألوان الباقية، وتحتفظ بمسافة كافية بينها وبين الأفكار الأخرى. وبالطريقة التي شرحتها، أرجع خطوة. . خطوة إلى الأمام، وكثيراً ما شعرت بآلام حادة في ظهري وعيني نتيجة الجهد الذي أبذله من أجل المشروع. . ولكن بعد أن أنتهي

أرى الورقة، وقد تخللها عشرات الأسهم والدوائر والأسماء.

واسمحوا لي الآن أن أقدم ملاحظة جديدة:

إذا ظلت الورقة بهذا الشكل تسبب لي كثيراً من المتاعب. إذ غالباً ما يصادف أن مساحة الورقة لا تتناسب وتوزيع الأشخاص والأدوار، وعليّ هنا أن أضيف، أنني أضيق ذرعاً بالأفلام المعقدة التي تحتوي على عدة أفكار رئيسية. فبعد أن أقسم الصفحة إلى مساحات وأشكال أعتبرها كافية، تبرز أشياء جديدة لم تكن بالحسبان، لذلك أضطر إلى تغيير الورقة، فأنقل محتويات المشروع الأول إلى ورقة جديدة. وهذا يتطلب تفكيراً عميقاً. والعادة أن أشعل سيجارة وأنظر من خلال الدخان إلى الورقة. بعد أن أبعدها عن وجهي مسافة كافية.. أفكر في الأمر جيداً، وأستعيد الوقائع مرة أخرى، وأوازن بينها.. وبقلم الرصاص، وبخط ناعم للغاية (قد لا يقرأه غيري) أضع الصيغة الجديدة للمشروع، والتي أريدها أن تكون نهائية.

بعد أن أطمئن إلى أن التوزيع أصبح مناسباً، أمسك القلم الملون وأخط البؤرة.. ثم أمسك مجموعة أقلام ملونة، وأخطط كل شيء بهدوء واتزان.

لاحظتم.. ولا شك، أنني أتجاوز التفاصيل. كما أتجاوز الأسماء أيضاً: وأقتصر على الحوادث الأساسية، كما أتصورها. وإذا لم تنزعجوا من الملاحظات، فأرجو أن تسمحوا لي أن أوضح ما يلي:

أشعر بالتعاسة إذا اكتشفت نقاطاً أو حوادث مهمة بعد أن أنتهي من المشروع بصيغته الأخيرة. وفي الحالات التي يصادف وأنسى بعض النقاط، ينتابني شعور بالحقد على النفس، ثم يسيطر عليّ الشعور باللاجدوى، فأتساءل، بعد كل هذا التعب، هل عليّ أن أضيف النقاط الجديدة؟ وإذا أردت.. أين أضيفها؟ وقد تجرني هذه الحالة إلى ترك الأمر كله، فلا أعود قادراً على عمل شيء أبداً، ولحظتها أخالف الأطباء وعلماء النفس، وأقول إن ضعف ذاكرتي أصبح عضوياً ولا يمكن الشفاء منه.

أما كيف أستطيع أن أميز الأشخاص دون أن أعطيهم أسماء، فأقول لكم إنني ألجأ إلى الأسماء الرمزية أو الحروف. وبعض الأحيان أشير إلى الأشخاص بأوصافهم.. وأنتم الآن مجبرون على مشاركتي التفكير في الآتي:

إن وصف إنسان ليس أمراً سهلاً. هناك حالات لا تحتاج إلى تفكير عميق، ولا يختلف عليها الناس، إذ يمكن أن يقال عن شخص ما إنه لص، لأنه يسرق. ولكن بعض الحالات المعقدة التي تقابل الإنسان، لا يستطيع أن يعطي لها أوصافاً واضحة ونهائية.. من ذلك أن أماً في أحد الأفلام، اضطرت أن تنام مع رجل من أجل الحصول على بعض المال لمعالجة ابنتها المريضة.. إن هذه الأم. لم تكن مومساً، ولا يمكن أن يصفها الإنسان بأنها سيئة، ولكن لا يجوز أيضاً تبرئتها تماماً، واعتبار عملها مجرد تضحية.. إذ إن ذلك قد يجر إلى أخطاء.

في حالة معقدة مثل هذه، أضطر إلى استعمال الرموز بدل الأسماء، أو الأوصاف، فأرمز إلى هذه المرأة بحرف أو رقم، د مثلاً أو 7، أو أي رمز آخر. . المهم أن يكون واضحاً بالنسبة لي.

وفي الحالات التي كنت أختلف فيها مع أصدقاء حول سلوك أحد الأبطال، أو حول الصفة التي يجب أن تطلق عليه، كنت أسمي هذا الشخص أو هذه الحالة س (ويجب أن تنتبهوا أن هذا يدل على تعقيد الإنسان وغناه).

هكذا إذن، أشير إلى الأبطال بأوصافهم. أقول مثلاً البطل الرئيسي. البطل الثانوي الأول، القاتل، العاشقة الصغيرة، الانتهازي. أما لماذا أتبع هذه الطريقة فأقول لكم إن من الصعوبة أن يتذكر الإنسان جميع أسماء أبطال الأفلام. وإذا حاول أن يحصر تفكيره في موضوع مثل هذا فقد يبتعد عن المحاور الرئيسية التي يجب أن يمسكها أو يركز عليها (لاحظوا كلمة محاور جيداً).

الآن. . انتهيت من المقطع الرئيسي، بعد أن عرضت عليكم الحالة التي أعاني منها، وكيف أعالجها.

هذه الحالة لا يمكن اعتبارها مرضاً عضوياً (وقد اختلفت في ذلك مع بعض الأصدقاء) لأن أحد الأطباء الذين راجعتهم أشعرني بشكل ما، (دون أن يقول ذلك صراحة) أن ما أعاني منه يدخل تحت عنوان المرأة. وقد نصحني أن أتزوج، أو أن أقيم علاقة صداقة مع نساء (وابتسم. . لا أدري لماذا؟) دون أن

يوضح ما يجب عليّ أن أفعله. . وإذا عرفتم أن من طبعي عدم الاحتكاك بالناس لأني أعتبرهم أشراراً رئيسيين بصورة عامة، تقدرون أنني لا أستطيع أن أسأل الطبيب توضيحاً بخصوص الصداقات التي اقترحها. . أما الزواج فأنا لا أفكر فيه لأسباب يطول شرحها.

في وقت من الأوقات، عندما أشعر بالهدوء، سأفكر جيداً في الأمر. وإذا تبلورت لدي أسئلة أساسية (ويجب أن تكون أساسية) ينبغي مراجعة الطبيب نفسه. أو يمكن أن أكتب لإحدى المجلات المتخصصة بمعالجة مشاكل الناس. . (سوف أوقع الرسالة بالأحرف الأولى من اسمي) ليس هناك ضرورة الآن، لأن المشاكل التي يعاني منها الناس كثيرة. وأنا لا أعتبر مشكلتي من الأهمية إلى الدرجة التي تستوجب أن ينشغل بها أحد.

لأحاول الآن، ومن جديد، وأمامكم، أن أستعرض المشكلة التي أعاني منها:

أنا شاب أبلغ من العمر سبعاً وعشرين سنة، لم تتح لي الظروف مواصلة دراستي الجامعية (لدي الرغبة في دراسة الفلسفة وعلم النفس، وأحاول الآن أن أقرأ بعض الكتب الاختصاصية) ولكن لي صداقات هامة مع خريجين ومثقفين أذكياء، وكثيراً ما راقت لي أحاديثهم، وإن كنت أخاف المشاركة فيها. أعمل في مصلحة حكومية براتب متوسط. أحظى باحترام رئيسي (لم تسجل عليّ عقوبات من أي نوع)

وزملائي، ولكني ميال إلى حصر علاقاتي في أمور العمل. لا أحب الارتباط بصداقات إلا مع رجال لهم تجارب، أما الرجال الطائشون فلا أحب الاحتكاك بهم، علاقاتي مع زميلاتي تثير في نفسي القلق والتفكير، فأنا لا أحب أن تكون لي بهن صلة مباشرة، لذلك أستعين بالمراسل لإيصال الأوراق والكتب، وأحب أن يكون تعاملي مع الجميع واضحاً لا غبار عليه.. وإذا لم أفعل ذلك فإن الأقوال والإشاعات ستنطلق حولي وتسيء إليّ!

أما الرحلات الجماعية التي اضطررت إلى المشاركة فيها، فقد كانت تسبب لي ضيقاً ينعكس بسرعة على تصرفاتي.

كنت أصاب بالارتباك، خاصة إذا سمعت كلمات غير مهذبة، أو إذا حاولت إحدى الزميلات أن تتدخل بأموري الخاصة. كأن تسألني عن حياتي وعن مشاريعي للمستقبل.. فإنني أرتبك.. ويجب أن أقول لكم إنني أحب القراءة والتفكير، صحيح أنني لا أقرأ كثيراً، ولكن أفكر كثيراً فيما أقرأ، خاصة القصص، ثم علم النفس.. أما المواضيع الأخرى فلا أحبها، وطبيعي أنني أقرأ أي شيء حولها ولا أتابعها في السينما.

هذا هو وضعي بدقة. أما كيف اكتشفت ضعف ذاكرتي، ولماذا راجعت الطبيب، فعليّ أن أصارحكم بما يلي:

دعيتُ ذات مرة إلى المحكمة للإدلاء بشهادة، وعندما سألني القاضي أن أروي ما رأيت، هالني كثيراً أن الحوادث

فقدت ارتباطها. بل ضاعت من ذهني تماماً. رغم أنها كانت واضحة وكأني ما زلت أراها. وأتذكر أني استعرضتها للمرة الأخيرة عندما كنت في طريقي إلى المحكمة، ولما لاحظتُ القاضي يبتسم ارتبكت، أحسست أنني وقعت في خطأ وأصابني الخجل نتيجة ذلك.. أما محامي المتهم فقد طعن بشهادتي ووضعي على أساس أنني إنسان لا أقدر على التركيز، وربما كنت مصاباً بمرض النسيان.. أو فقدان الذاكرة، بعد حادث السيارة الذي تعرضت له، (وهو حادث تافه لم أجد مبرراً لأحدثكم عنه) لم أصدق كلمات المحامي واعتبرت هذا طعناً في إخلاصي، وأصررت على أداء شهادتي كاملة، كما طلبت إلى المحكمة أن لا توجه لي أي أسئلة تافهة.

لم تمر أيام قليلة على ذلك حتى وقعت لي مشاكل كثيرة في العمل وفي الشارع ومع الأصدقاء.. من ذلك مثلاً أنني كنت أنسى كتابة عبارات بكاملها عندما أقدم لرئيسي بعض الكتب، وقد استغربت ذلك كثيراً بعدما أطلعني رئيسي على كتب كنت قد هيأتها. حتى كدت أنكرها لولا أن رأيت توقيعي عليها. وذات مرة توقف المرور وارتفعت أبواق السيارات دون أن أحس بذلك.

لقد دفع هذا بعض أصدقائي لأن يقترح عليّ مراجعة الطبيب. بعد تردد وافقت، خاصة وأن الأمر صار منغصاً لي، في الفترة الأخيرة، عندما أصبحت عاجزاً عن النوم وأصابني الهزال.

في تصوري أن الأطباء يخلقون الوهم في نفوس المرضى، ولا تستغربوا إذا قلت لكم إنهم يخلقون المرض من لا شيء؛ إضافة إلى حالات الخطأ الكثيرة في تشخيص المرض.

عندما ذهبت إلى الطبيب لأسأله عن أسباب الهزال والتعب اللذين أعاني منهما، وبعد أن فحصني بدقة، سألني أسئلة كثيرة لا مبرر لها. سألني عن طفولتي وعن حياتي الخاصة، وخرج بعد ذلك بنتيجة غير منطقية تماماً، بل أستطيع أن أقول إن هذه النتيجة خاطئة، إذ بدأ يتحدث عن الزواج والصداقات ولا أدري أي سخافات أخرى، ولما تأكدت أن وضعي لا يستدعي القلق، وبعد أن اقتنعت أن العلاج لا يكون إلا بالراحة، أخذت إجازاتي المتراكمة دفعة واحدة، وسافرت إلى شاطئ البحر.

أثناء الإجازة وقع في يدي كتاب ينصح بمجموعة من الوسائل لإعادة تدريب الإرادة، وتقوية الذاكرة. وبعد أن استوعبت الكتاب تماماً، توصلت إلى تلك الطرق الجديدة التي شرحتها لكم، وقد بدأت بتطبيقها فوراً، ونتيجة ذلك شعرت أن وضعي قد تحسن.. أو بالأحرى لم تعد لدي مشكلة.

ها أنا ذا الآن قد انتهيت؛

قد تسخرون كثيراً إذا عرفتم أنني لم أكن أنوي كتابة كل هذا الذي قرأتموه؛ فقد كان بذهني أن أكتب شيئاً آخر، مختلفاً تماماً، ولكن لأنني بدأت بداية خاطئة، توصلت إلى نتائج خاطئة... ولو كنت أميناً للقواعد التي اتبعتها في تذكر الأفلام

والكتب، ولو بدأت من النهاية ثم رجعت إلى الوراء.. إلى الأمام.. خطوة.. خطوة.. لو تم ذلك فعلاً، لقرأتم شيئاً آخر.

لقد نسيت أن أحدثكم عن زميلي في العمل.. ابتسمت لي أمي، واتفقنا أن نذهب غداً إلى السينما. ولدي أفكار كثيرة بخصوص المستقبل، قد تصل إلى الزواج.. لقد نسيت أن أحدثكم عن ذلك.

ولكنني في المرة القادمة سوف أستعين بوسائل الإيضاح: البؤرة، الرسوم، الأقلام الملونة، المحاور، لكن لا أنسى.. ما يجب أن أتحدث عنه.

أكفان البلدية

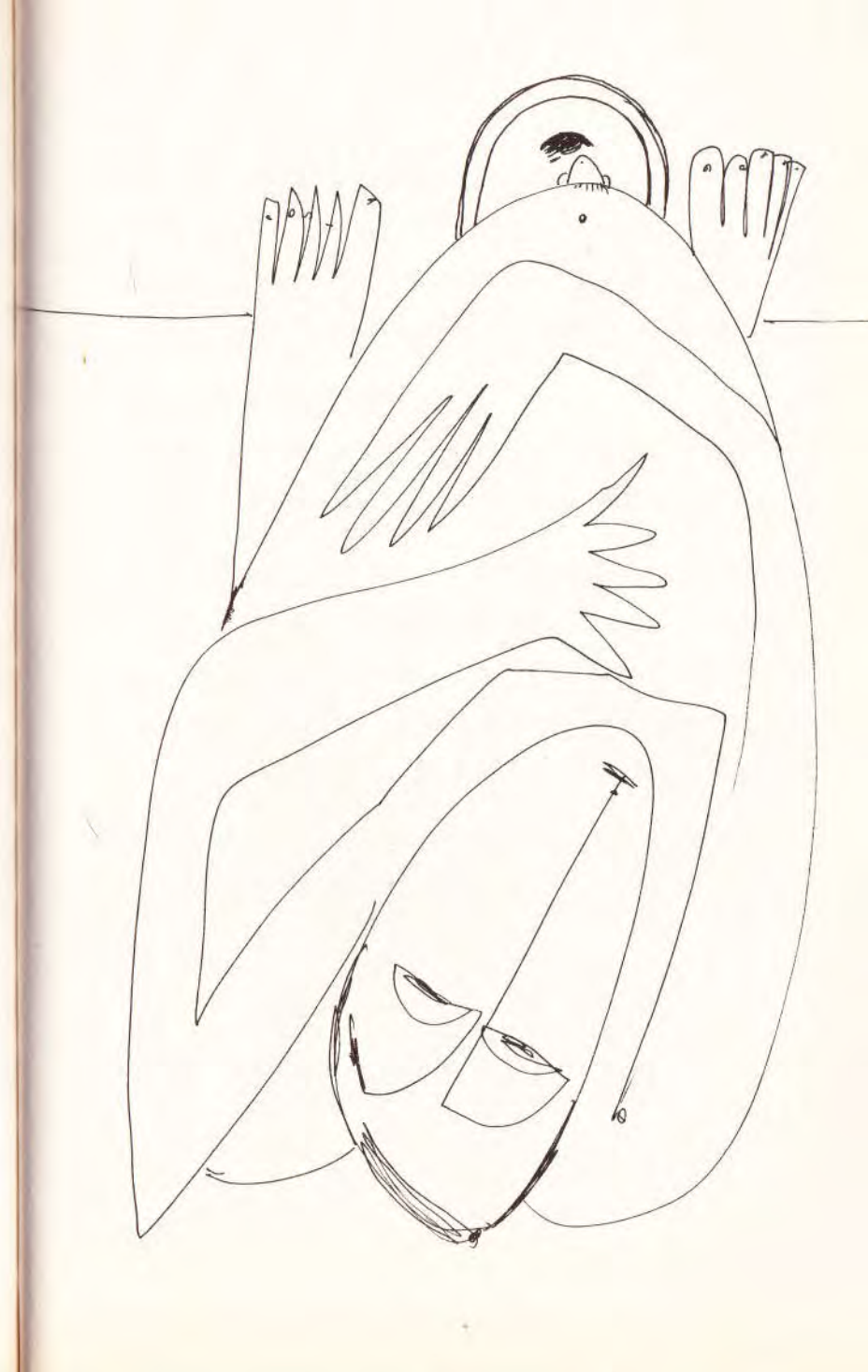

لم يكن أحد يعرف اسمها بدقة؛ صحيح أن الجميع ينادونها تمام ولكن إذا تحدثوا عنها وهي غائبة، أعطوها أسماء كثيرة. كانوا يسمونها تمام الهرشة، أو الخرساء، وسماها بعضهم قاتلة الأولاد. أما لماذا اختلفوا على اسمها، أو لماذا كان لها كل هذه الأسماء، فالأمر يعود أولاً وأخيراً إلى صمتها. كانت ترفض بإصرار التحدث مع أحد، وترفض أكثر من ذلك أن تذكر شيئاً عن اسم أبيها أو عائلتها. كانت تقول:

- يكفي أن تعرفوا أن أسمي تمام. وتصمت ثانية، ثم تضيف وكأنها تخاطب نفسها: الله لا يتمم عليّ.. الله يلعن اليوم الذي جئت فيه للدنيا.

وإذا أصر أحد على أن يتابع حواراً معها لجأت إلى الصمت، فهي تصمت مثل حجر، حتى أنفاسها تخفت وتصبح قصيرة كأنها تريد أن تنزلق إلى الداخل. وفي الحالات التي يزداد فيها الإلحاح لحملها على الكلام كانت تنفجر بغضب لتقول:

- أنا لا شيء.. لا تمام ولا عفريت، اتركوني يا ناس، باقي لي بالدنيا كم يوم، وبعدها لا من شاف ولا من سمع.

- هل تريدين أن تموتي يا تمام؟

- الموت أفضل ألف مرة من هذه الحياة.

- أنت تحبين الشكوى.. حياتك أحسن من الكثيرين، كل يوم في بيت، تأكلين وتشربين..

- ليت الذي يحكي يعيش مثل حياتي.

وتوارب تمام جلستها، تخفض رأسها إلى الأرض وتصمت، لكي لا يظهر عليها البكاء حتى تنزلق دموعها إلى الثوب الأسود المغبر، فيصبح مكان الدموع مثل ندوب صغيرة لا تلبث أن تعتم قليلاً ثم تزول. وينيخ الصمت ثقيلاً أسود، لا تترك فرصة لأحد أن يقول كلمة، فإذا انتهى بكاؤها، قامت معطية ظهرها لمن يتحدث معها، وغسلت وجهها.

كانت تمام بثوبها الأسود الخشن والطرحة السوداء التي يتخللها الأخضر والأحمر، مثل بيرق حزين، لا يتغير أبداً، ولم يرها أحد إلا هكذا..

إذا تجرأت الآن وحاولت أن أتذكر تلك المرأة التي رأيتها وقد نزعت عن رأسها الطرحة واستبدلت بثوبها الأسود ثوباً رمادياً كانت أمي قد أعطته لها، فإن ذلك حصل لفترة قصيرة، كأنه حلم، حتى أني أتردد في تصديق نفسي:

ففي ذلك اليوم، أرادت تمام أن تنام عندنا، لم أعرف أول

الأمر لماذا، ولكن تكرار ذلك فيما بعد، جعل الأمر يبدو طبيعياً وعادياً..

في ذلك اليوم عند الغروب، وكنت قد دخلت المنزل للحظات قصيرة لكي أشرب وأعود لمواصلة اللعب، رأيت امرأة بثوب رمادي، تنحني على البالوعة، وأمي تقف فوق رأسها وبيدها زجاجة الكاز، تصب على رأسها.. بدا لي المنظر غريباً.. مَن هذه المرأة؟ ولماذا تصب أمي على رأسها الكاز الذي لا نستعمله إلا في الموقد؟

لمّا رأيت ذلك، سألتُ أمي ببلاهة عما تفعل، فرأيت نظرة غاضبة في وجهها، ولم تلبث أن عضت بشفتها تريدني أن أسكت ولا أتدخل. وعندما رفعت تلك المرأة رأسها قليلاً ونظرت إليّ، عجبت كثيراً لأنني اكتشفت في وجهها تمام. كانت امرأة مختلفة، حتى أن صورتها تغيب عني فلا أتذكرها تماماً.

في الليل، أخذتني أمي بعيداً، وبصوت بطيء هامس، أفهمتني أن الكاز أحسن دواء لقتل القمل، وأن رأس تمام مملوء بهذه المخلوقات الملعونة. لم أتكلم ولكن وجدت الأمر غريباً، من أين أتت هذه المخلوقات؟ ولماذا تفعل أمي هذا؟ وفوق ذلك لماذا تنام تمام عندنا؟

بعد تلك الليلة، ولأيام كثيرة، تعودت أن أرى تمام في بيتنا، ولكن لم أرها أبداً في الثوب الرمادي تنحني فوق البالوعة تغسل رأسها؛ وإن سمعت أمي تنبه أن لا يقترب أحد

من فراشها. كما رأيت أمي أكثر من مرة تحمل الفراش وتنشره في الشمس طوال النهار، مع أن هذه العادة لم تكن مألوفة في بيتنا إلا بالنسبة لفراش أخي الصغير، الذي ظل يتبول في الفراش رغم تحذيرات أمي الشديدة، ورغم ضربه في بعض الأحيان!

كانت تمام بالنسبة لنا عالماً مغلقاً غامضاً. نعرف أن لها زوجاً، ولكن في المرات القليلة التي سمعتها تتحدث عنه لأمي، كان الحديث لا يتعدى الشتائم.

لم تكن تذهب إلى بيتها إلا مرة في الأسبوع، فهي تدور في الحي من بيت لآخر، لتقوم بأعمال شاقة لا يقوم بها أحد غيرها، كانت أمي تحتاج إليها في الأيام الكبيرة، كما تحب أن تطلق على الأيام التي تغسل فيها الصوف أو تصوّل القمح، وتؤخر بعض هذه الأعمال حتى تأتي تمام وتساعدها.

ذات يوم جاءت تمام إلى بيتنا متورمة العين والشفة السفلى، وكانت تحمل كيساً من الخام؛ أبقته عند العتبة، ودخلت عند أمي إلى المطبخ، وقبل أن تسألها أمي أو تتحدث معها، رأيتها تنخرط في نوبة من البكاء الحاد، أثارت فزعاً ليس في بيتنا وحده، بل وفي البيوت المجاورة؛ وخلال فترة قصيرة تحول بيتنا إلى خلية من الاضطراب والفوضى، فقد جاءت الجارات وتحلّقن حول تمام وبدأت تنهال عليها وعلى أمي الاستفسارات مثل زخات المطر، وتمام ما تزال في عويلها المتواصل وبكائها الحاد المتشنج، تجيب على الأسئلة وأمي

حائرة، توزع نظرات متسائلة خائفة، وكأنها تطلب عوناً.

بعد ذلك اقترحت امرأة مسنة أن تترك وحدها مع تمام، فلما خرجت النسوة، طلبت المرأة من تمام أن تغسل وجهها وأن تستعيذ بالله، ولم يمض وقت قصير حتى خرجت وأبلغت النساء أن تمام لا تلبث أن تهدأ، وليس في الأمر شيء يستوجب القلق. ثم أضافت موضحة الأمر أكثر، فذكرت أن انقطاع تمام الذي استمر شهراً، كان نتيجة مرض ابنتها، ثم موتها، وبعد أن أبدت النساء مشاعر الأسف والحزن، أضافت المرأة المسنة والحزن يلفها: لم يقتصر الأمر على ذلك لكن زوجها تزوج، قبل أن يمض على وفاة ابنة تمام من زوجها الأول، إلا أسبوع واحد، ولما احتجت، واعتبرت تصرفه مؤذياً لمشاعرها، وهي في حزنها على ابنتها، اتخذ ذلك ذريعة وطردها من البيت، بعد أن ضربها على وجهها.

أصبحت تمام جزءاً من حيّنا لا تفارقه. لم يكن لها بيت بعينه، ولكن بيوت الحي كلها كانت تستقبلها يوماً بعد يوم، وكانت تنام أغلب الأحيان في البيت الذي تعمل فيه ذلك اليوم.

لم تنقض فترة حتى رأينا ذات غروب رجلاً غريباً.. قصيراً مملوءاً، لكن آثار التعب والسن تبدو عليه، وبخطوات خائفة حذرة ظل يدور، ولم يلبث أن سأل عنها. وقف أمام البيت الذي ذُكر له أنها فيه.

خلال فترة قصيرة رأينا مشهداً عجيباً:

ما كادت تمام تطل وترى الرجل، حتى أغلقت الباب بغضب وانهالت الشتائم من فمها، وظل الرجل صامتاً يجلس على عتبة البيت الخارجية كأنه كلب ذليل، ثم بدأ، بعبارات بائسة، يناديها، فإذا سمعت صوته زادت شتائمها، وظل الأمر هكذا حتى تدخّل أصحاب البيت وتم الصلح بين الاثنين، كانت تمام ترفض أول الأمر وهددت أن تقتل نفسها، لكن صراخها أخذ يخفت حتى تلاشى.

بعد الغروب بساعة، كان الموكب الصغير الصامت يخترق شوارع الحيّ، بعد أن أعطى زوج تمام كلمة شرف لصاحب البيت، أما عندما أقسم بتراب أبيه إن المرأة التي تزوجها لم تعد موجودة في بيته فقد قوبل ذلك بالتعبير عن فرحة! وظل هذا المشهد مثل علم يرفرف في ذاكرة الناس الذين عرفوها وسمعوها في ذلك اليوم.

وحقيقة الأمر، كما روته تمام لأمي فيما بعد، أن زوجها، وقع على رأسه، بعد زواجه بتلك المرأة، وأن خدعة كبيرة كانت تنام في قلب الاثنين، فقد تزوج المرأة طمعاً بمالها، ولكن لم ير شيئاً من ذلك المال، والمرأة ظنت أنها تتزوج رجلاً قوياً، ولكن لم تنقض فترة أسابيع حتى انكشفت الخدعة كلها؛ فلم تعطه المال الذي وعدته به، بل أكثر من ذلك ادّعت أنها لا تملك شيئاً، وقالت عنه كلمات بذيئة؛ ثم هربت، دون أن تقول أي شيء، ودون أن يعرف عنها أين ذهبت.

وانتظر أياماً والمرأة لا تعود، وقرر أن يرجع إلى تمام.

لكن شرخاً كبيراً أصاب الاثنين معاً. فتمام لم تعد مثل قبل، تحرص على الذهاب إلى البيت كل يوم، فهي تقضي أياماً كثيرة في حيّنا، وإذا ذهبت إلى بيتها، فلا تلبث أن تعود بسرعة، والرجل لم يأت بعد تلك المرة إلى الحيّ، ولم يسمع عنه شيء، بل وتجاوز الأمر حدوده كثيراً، إذ عادت تمام أكثر من مرة وقد ضربت وآثار الضرب واضحة على وجهها ويديها.

كانت أمي البئر الذي تدفن تمام فيها كل شيء: أسرارها وقروشها القليلة التي تحصل عليها، وكانت تقول لها، وهي تسألها عن المبلغ الذي تجمع لديها وتحرص على أن تكثر هذه القروش حتى تصل إلى رقم تعتبره رقماً خيالياً، ولا تريد شيئاً أكثر منه؛ وهذا الرقم الذي حددته، كانت تسأل أمي كل يوم كم تحتاج حتى تصل إليه، وتتابع أنا حمارة لا أقدر أن أحفظ القرش الذي في يدي يوماً واحداً.. لا تعطيني شيئاً، مهما طلبت وبكيت، لا تعطيني.

ظل هذا الأمر سراً لم تبح به أمي إلا في يوم حزين.

كانت تمام بحرصها على أن تصل إلى هذا المبلغ، تفكر كثيراً وتعمل كثيراً. وظل هذا الأمر مثيراً بالنسبة لي؛ ورغم أني سألت أمي مراراً عن هذا الجنون الذي يدفع تمام لجمع هذا المبلغ الذي لا تحتاج إليه، أو هكذا بدا لي، فقد قالت أمي كلمات، ظلت تحز في نفسي سنين كثيرة.

قالت أمي بنفاد صبر:

- يـا ولـدي.. أنـت لا تـزال صـغـيـراً، ولا تـدرك هـذه الأمور، إن تمام تعمل وتجمع خوفاً من ذلك اليوم.

- وأي يوم يا أمي؟

- يوم تموت.

- وهل تحتاج إلى نقود إذا ماتت؟

- الموت والحياة، كلاهما صعب ويحتاج إلى نقود!

- وكيف.. يا أمي؟

قالت ولم تعد تطيق أسئلتي:

- لمّا ماتت بنت تمام، لم يكن لديها مال لكي تشتري لها كفناً، فتولّت البلدية تكفينها ودفنها، وقد كان الكفن رقيقاً هشاً، بحيث لم يستر البنت.. وتمام تخاف أن تموت تلك الميتة، لذلك فهي تحرص على أن تجمع ثمن الكفن؛ أعرفتَ الآن لماذا؟

لم أفهم كلمات أمي. ظلت هذه القضية تحيرني وتُدخل الرعب إلى قلبي..

في يوم بارد من فصل الشتاء، وكنا نُدخل الحطب في الصباح الباكر، رأينا تمام تركض نحو بيتنا وقد اكتسى وجهها بزرقة حادة، لذعتها الريح الباردة، فجعلت شفتيها جافتين زرقاوين مثل قطع حطب جافة، ولم تكد ترى أمي حتى هوت على كتفها، تقبله وتبكي، وفهمت بعض الكلمات بغموض.. سمعتها تقول لأمي:

- أريد النقود.. لقد جاء وقتها!

ونظرت إليها أمي باستغراب، ولكن الدفعة الصغيرة من يد تمام جعلتها تتأخر إلى الوراء، ثم جعلت كل شيء واضحاً بشفافية ملعونة، أقرب إلى الطعنة لأمي، قالت تحثها على السرعة:

- لقد مات، لقد مات ونريد أن نشتري له كفناً..

ولم تناقش أمي.. دخلت بسرعة فأحضرت صرة صغيرة بيضاء وضعتها في يدها دون أن تتكلم.

من جديد عادت تمام، وبدأت تقضي أياماً طويلة في بيوت الحي بعد أن أصبحت وحيدة ولم تعد تذهب إلى بيتها إلا نادراً. ولكن في هذه الفترة تغيرت كثيراً، إذ بدأت تغرق بالصمت أكثر من قبل، وينتابها حزن يبدو على وجهها، وأمي تحاول معها، وتقول لها إن الناس جميعهم يموتون ولا يحتاج الأمر أن تقتلي نفسك وراءه.

وتمام لا تتكلم، كانت تلوذ بالصمت والبكاء، ولما أصبح جوها ثقيلاً متعباً حاولت أمي أن تتفاهم معها، وبعد جهد اتفقت المرأتان ولا أدري على أي شيء!

عادت تمام إلى حياتها الطبيعية. أصبحت تغرق نفسها بالعمل، ولا تتحدث عن زوجها المتوفي أو عن ابنتها. وكأن راحة أقرب إلى الرضى بدأت تسيطر عليها.

ذات يوم افتقد الحي تمام، لكن أمي افتقدتها أكثر من غيرها، وكأن إحساساً لعيناً بدأ ينغل في قلبها. . ولم نعد نرى أمي إلا مضطربة أقرب إلى الذهول وهي تخاطب نفسها:

- لا بد وأن تكون هذه الشقية مريضة. وإلا لماذا لا تأتي!

ونقول لأمي: أنت تعرفين تمام. . تغيب فترة طويلة، وليست هذه أول مرة تغيب فيها.

وترد مخاطبة نفسها: لكن هذه المرة غيبتها ليست مثل كل مرة. .

ونحاول إقناعها، نقول لها انتظري وستأتي. . وتنتظر يوماً وتنتظر يوماً آخر، وتمام لا تأتي، ولا يسمع عنها شيء!

قالت أمي، وهي تهزني لأستيقظ في ذلك الصباح الشتائي البارد:

- يجب أن نذهب لنسأل عن تمام.

قلت وأنا أستدير إلى الناحية الثانية محاولاً مواصلة نومي:

- اتركيني من هذه المجنونة.

- ولكن يجب أن نذهب لنسأل عنها.

- انتظري هذا اليوم أيضاً وغداً نذهب.

- لا أنتظر بعد أن رأيت هذا المنام.

وبهدوء مستفز، انقلبت لأنظر في وجه أمي أسألها عن المنام.

- رأيت تمام مثل عروس.. وأنت تعرف أن مناماً مثل هذا يعني أن تمام مريضة وقد تموت.

ذهبنا إلى الحيّ الذي تسكن فيه. كان حياً فقيراً ليس له ملامح وحدود. فالامتدادات الحزينة للبيوت الواطئة والطرقات الغارقة بالوحل، ثم الصمت في ذلك الصباح البارد، والذي يكون حماية من نوع ما لهؤلاء البشر الذين لا يريدون أن يصرفوا طاقة من أجل أن يحفظوا أرواحهم في صدورهم لكي لا تخرج.. في ذلك الحيّ بدأنا نسأل عن تمام.. ونتلقى إجابات صماء:

- تمام؟ أي تمام؟

- امرأة كبيرة.. مات زوجها قبل شهرين.

- امرأة كبيرة؟ مات زوجها؟ من تكون؟

- اسمها تمام.. ولا أعرف باقي اسمها.

- وما شكلها؟ في هذا الحيّ أكثر من تمام، ماذا يسمونها؟ أم عيشة، أم عبد؟ أم....

- والله يا أخي لا أعرف.

- ماذا قالوا لك؟ أين تسكن؟

- قالوا إنها تسكن هنا.

وننتقل إلى بيت آخر، ونتلقى إجابات مستغربة من النوع نفسه، ومن خلال العيون المتسائلة الثقيلة نغرق أكثر في

الذهول والوحل. ظللنا نغوص في الحيّ ساعة أو تزيد، ولا نترك أحداً إلا ونسأله. وفي نهاية زقاق قريب من المقبرة، وجدنا امرأة عرفتها، وقالت لنا كل شيء:

- تمام التي تسألون عنها ماتت قبل ثلاثة أيام!

- أمتأكدة أنت؟

- نعم متأكدة، أعرفها، وأعرف أنها كانت تعمل في حيّ.. وقد مات زوجها قبل شهرين.

- أمتأكدة أنها ماتت؟

- نعم يا بنيتي، ماتت يوم الثلاثاء.

- وكيف ماتت؟

- وأشارت المرأة إلى غرفة واطئة، قريبة من القبور، وقالت إنها كانت تسكن في تلك الغرفة وقد...

واستدارت أمي، سبقتني بخطوات، في اتجاه العودة، والمرأة العجوز ما تزال تروي كيف حصل الأمر.

أثناء العودة، كانت أمي حزينة، وقد طفرت الدموع من عينيها، وقد سمعتها تتمتم بكلمات غامضة وكأنها تخاطب نفسها:

- الشيء الوحيد الذي كانت تخاف منه، وقع.. كانت تخاف أن تموت، ولا تجد ثمناً للكفن، فتتولى البلدية دفنها... كانت تعيش في رعب.. لأن أكفان البلدية رقيقة هشة لا تستر الموتى.

وفي المساء، رأيت أمي تفك صرة صغيرة، وتقلب ما فيها بين يديها، دون رغبة في أن تتطلع إليها. . وسمعت كلمات بطيئة يائسة تنزلق من فمها!

- ما أقذر هذه النقود. . لم تعد الآن تفيد تمام شيئاً!

المحتويات

أسماء مستعارة 5

قصة تافهة 39

خطاب العرش 53

المنكود 67

عَرَق... ونشرة أخبار 85

عالمان 101

عملة مزيفة 107

ابتعدت الباخرة... كثيراً 115

البدء.. من النهاية 123

أكفان البلدية 139

أسماء مُستعَارة

يا شعبي العزيز جداً

لقد قلنا لكم في عيد جلوسنا الثلاثين.. أو الخامس والثلاثين.. وربما الأربعين، أن حكومتنا تحتاج إلى الوقت والهدوء، من أجل إنجاز مشاريع الإعمار في جميع أرجاء البلاد، وهذا القول الذي قلناه قبل أربعين عاماً ما زال صحيحاً جداً، وساري المفعول أيضاً، وقد أمرنا رئيس وزرائنا المفخم جداً، أن يؤكد على ذلك في مرسوم جديد، حددناه قبل عيد الفطر المبارك، أعاده الله علينا وعليكم وعلى سائر المسلمين بالخير واليمن والبركة.. اللهم آمين..

وبعد، أما بخصوص انحباس المطر فإن اللوم يقع على وزير الإفتاء، الذي كان غبياً جداً ولم يختر اليوم المناسب لصلاة الاستسقاء، وقد عاقبناه، وسنعاقب كل وزير يسيء إلى الشعب، فالشعب أمانة في أعناقنا.

هكذا كان والدنا المغفور وهكذا سنبقى...

«مقتطف من المجموعة»

ISBN 9953-68-138-4

9789953681382

المؤسسة العربية للدراسات

المركز الثقافي العربي